المأسور

عودة الى الذاكرة

يوسف اسخيرة

المأســور

عودة إلى الذاكرة

٦

_2022_

يوسف أسخيرة

الاهداء

آلى كـل من حـــاول إحبــاطـــيِ

واصل النباح ورائي،فديلك المقطوع يجلب العار لك ولا يوجد لديك شيء لتنفيس عن إلمك.... واصل النباح...

إلــيك

لا يهمنــي مـنْ تكـونْ،ولا أيـن ستكونْ،طبْعــا نحــن أعـداء الأمـر لا يحتمـل التأكيـد،فأنتَ تبحـثُ عـن مـوطن ضـعف فــي شخصـيتي الكتابيـة وأنــا أدافـع عـن كـل الثغـرات فـي نصي،كلانــا يعلـم مـا ستؤول إليـه المعركـة،لكي أضـع الورقــة الخاسـرة فــي ملعبـك،ينبغي أن نعلـم أي ارضٍ سـتحمل هـذا الشـرف العظيم،شرف مواجهتنا ...

هذا الكتـاب لـمْ يـأتي بعـد تخطـيط ولكنـه جـاء فجـأة دون إذنٍ مني،رأيتُ فـي المنــامِ ســاكبةً تفــوح جمالاً ،فــأثقلتني بكحولهــا،فلم يُثرنـــي غيـــر مـــا حصــلَ،تفكيرٌ ثمــلْ،فكرتُ فـــي أننـــي أســـيرٌ لمشـــروبي الرخيصْ،أســـير الحانة،أسيرٌ لؤلائـك الحمقـى الـذين يتشـاركون معـي النبيـذْ،والمهم أسـير تلـك الســاكبة اللعينة،لســتُ أريــدك أنْ تخـــاف ،فـــنحن جميعـــاً أســـرى هـــذا المستنقع،أســـرى الحياة،أســـرى أنفسنا،أســـرى غيـــر مـــدركين لهـــذا القيـــد الملعـــونْ،نحن مأســـورون بعاطفتنـــا وإنكســـاراتنا،بقوتنا وضعفنا،مأســـورون بإنســـانيتنا وغرابتنا،كـــل مـــا تـــراهُ مباحـــاً أراه كقيـــد يلـــبسُ ثيـــابَ الحرية...اعتبره كتابا لتنمية البشرية،فأنـا نفسي أجهل أين أضع قدمي...

"تـذكر شـيئاً لا يهـم أن تعـيشَ مـع فكـرة ولكـن المهـم أن يكـون لـديك مبـدأ يجعل حياتك ذات معنـى ".

الفصل الأول

-١-

المَأسـورُ

"كُـلنا أسْـرّى "

فـي زنزانـة مقرفـة ،مظلمـة متجشئة لبقايا ظلمتهـا الحالكـة،حيثُ يَسْكنُ أحـد أسـرى الحروبْ،هـذا الكـائن المنسـي لـمْ يأكـل لشـهرٍ،مادام يتمـاهى مـع حلكتـه ويعيش فيها،فلا أحـد مـن الحـراس قد رآه،بل ظنـوا أنـه قد إنتقل الـى زنزانـة افضـل، لحظـه البـائس ظـل فـي الحلكـة يعيشْ،إنـه مجبـرٌ علـى البقـاء فـي الزاويـة كـي لا يُعامـلَ كعبـدٍ وضـيع،كي لا يفقـذ مـا تبقـى مـن إنسـانيته كإنسانْ،فالسـجنُ يـروض الحيواناتْ،وكـل حيـوانٍ بالكـادِ يعـيش فـي السـجن...حتما لـيس أمـر كمـا يُـقال فنصـف أقـوال أكاذيبْ،لنعـدْ لحالـة هـذا البـائس صـاحبْ النظـاراتِ المكسـورة التـي إعتـادت وجهـه القبيحْ،إنـه أسـعد شـخص علـى وجـه الأرضِ يقـول " سـعادتي تضـاهي عثـوري علـى كـيسٍ مـن الأمـوال فـلا اتقاسـمها سوى مـع حظـي التعيسْ،بـدلَ أنْ ارى وجـه كـائن بشـري مثعـبٍ مـن حظـه...هـذا مـا أديـن بـه لعزلتـي " . فلـو كـانَ القاضـي يـرى بصـدق هـذا المأسـور صـاحبُ الشخصـية السـوداوية التـي تنـاَلُ البيـاض بكـل

فرحٍ،لفك أسرها،ولأصبحَ مِمَنْ أبيحَ لهمْ الرجوعَ من نفسِ الطريقْ،أليس صعْبًا الجلوس بين اربعة حيطانٍ صماءٍ تعيدُ نفس التهريجِ كلما نفتَ مهرجنا نكتة مضحكة،إن إستمرارفي قول النكتة يجعلها مضجرة،فكلما أعدنا قولها كلما فقدتَ جزءاً مضحكاً منها،لوقتٍ تصبحُ كجملة " أنا بخير "،ضحكِ المأسورُحتى إرتعبَ أصدقاءه السجناء الذين يسكنونَ بجانبه،بقولهم " لا نكاد نسمع صوتَ ذلك الغبي في زنزانته المهجورة "حتى همْ خدعوا في المقلبْ،فالأسير ليزال ينتصبُ في ظلماهْ،ليزالُ متكتماً على حماقاته،فهل الذي يعتادُ القيودَ قدْ يُسامحُ في حريته؟ ربما فإنسان متكيفٌ بطبعه،مادام قد إعتادَ العيشَ مع الذئاب لِمَ لا يَعيشُ بأساور تزينُ رقبتهُ....إسمعني جيداً،كفاكَ تخادلا،لا تنظر الى السماء طويلا ولا الى الأرض اكثر من اللازمِ،زُرْ منْ تراهُ يحْتاجُ،وإلتقي بمنْ تراهُ قادراً،وإتصل بمن تجدهُ غائبًا،فالموتُ تخطتفُ المقربينَ في غفلة منا،والنذمُ بعد كل هذا لا معنى له.أليس مثعباً أنْ نحاول تبرير أننا وحيدون بشيء من التعاسة المكسوة بالفراءِ، لنُظهر للعامة أن الوحدة رغم قساوتها فهي رائعة،إننا نخشى أن تعاقبنا لو شتمناها،الوحدة مقبرةٌ لنفوس المحطمة،إنها مرعبة وكاسرةٌ،حيثُ تعودُ فيها كل ذكرياتنا البائسة المنسلخة كجسد فقد قشرته السطحية التي تخفيُ رعبَ هذا المخلوقِ،فإن كنْتَ لا تستطيع العيش وحيداً،لا تجبر نفسك على ذلكْ،فاليومُ وأنا أسِيرٌ هذه الحيطان المتصدعة،أسترجع ذاكرتي وسيناريوهاتٍ حياتي الجميلة والبائسة صارتْ أجملَ حينها،إنهُ مرهِقٌ برائحة الرضىُ المرصع

بالقناعة البالية،كأي سجينٍ أنا،وربما انا الوحيد الذي لم يَخُطَّ جدران زنزانته بذكرياتهم المجحومة،بل تركتُ كل بقاياي في داخلي أنتظرُ منها ان تشعل هذا المصباح المحروقْ،الذي لنْ يصلحَ لإنارة ركني الميتِ،عصارةٌ إنسانية؛هل أنا الأخير منها؟ يعثريني الفضول لمعرفةِ أينَ وصلنا بهذا الإنسان المدفوعِ بغريزته الطائشة،حالهُ لا يفِرُقُ عنْ حالي،كلانا أسيرٌ،حبيسُ شيء ما،هو فتى مسعورٌ ناله الإنحطاط وأنا شابٌ فانٍ أضجرتهُ هاته الحِيطانِ البشعة،لِمَ لا يلونونَ الزنزاناتْ لربما تغيرُ بعضًا منْ طِباعِ السفاحينَ والنشالينْ،لطالما قيل أن الفن علاجْ،والبلدُ الذي لا يبْدعُ مريض..لربما نعتبر أنفسنا مرضى حينما نقسوا على هذا الفنانْ،مصيبة هذا البلد المغفل ليس أنهُ جارٌ جيدٌ،وأبٌ سكيرٌ سيء،إنه يكرهُ منْ تراهُ يبدعْ،فيعطيه رجفة من كحوله إمتناناً لماَ قُدِّمَ له البقشيشْ،الجميل في السجن أنه يجعلك مفكراً،تفكر في كل الشيء،وفي أي وقت تريدْ،ستفكر في الآخرين،في المستقبل،في العدالة والجريمة،في الأشياء التي لا تخصك ابداً،ستشعر بأنك تحتاج لتناقش هذه المواضيع مع سجينٍ آخر بزنزانة آخرى،لتقتلَ ضجركَ،وحقيقة أنكَ أسيرٌ،هذا هو الإنسان يحتاجُ لمخيلته ليُفلكَّ كل البلاوي التي قد تقع على رأسه،ببساطة أن يهربَ الى مخيلتهِ ،الى المكان الذي يروقهُ،ويشعر فيه بالأمانِ.

خفتُ ألا أرى نفسي،ألا أشعر بالأشياء الجميلة التي تراود الكلْ،أخافُ أن يبتلعني وحشُ النسيانِ فأفقدُ نفسي،ثمَّ ملامحي لأصير عدواً لشخوصي

جميعها،الأمر يشبه أن تستفيق ذات يومٍ سعيداً فتغسل وجهك لترى أنَّك بدون ملامحْ،بقعة أرضٍ قاحلة ملتصقة في وجهكْ،كم سيكون سخيفًا أن يحدث كل هذا بالكاد سنصاب بالذعر في بادئ الأمر تم سنعتادهُ،لربما نرسمُ عليه ملامحا أجمل تليق بناَ،وإنْ لم تعجبنا نزيلها بغسلة ماءٍ،ستضحك وستقول هذا هو جنونُ الأسرى إنهم يحلمونَ أكثر مما هم يتنفسون. لست على حق حتماً،الأسرى لا يباحُ لهم أن يحلموا،فكل أحلامهم متصلة بمستقبلهم المجهول. فهناك منْ سيحلم بمئصلةٍ تقطع لنصفينْ،وهنالكْ من سيحلم بكونه سيسطو على إحدى البنوك وسيموتُ في مواجهة مباشرة.قليل من هؤلاء من يأتيه دلك الحلم الجميل ويا للأسف يُجهضُ حينما يطرق السجان باب غرفته،إنهض يا صغيري،الجلاذ ينتظر،إنه متشوق لتعرف على ضحيته القادمة،لا تضع مساحيق التجميل ولا أحمر الشفاه،فهو يكره النساءَ،ماداموا يجعلونه يرضخ لمطالبهمِ،ألنْ يكونَ الأمر حاسماً حينما نتوسد أثعابنا فوق رفّ مهجورٍ مع نافذة ملطخة بالخشبِ المتصدعِ،لنتساءل " ما مصيرنا؟ منْ نكونُ ؟ من الواضح أننا لسنا سوى بشر ببشرة متأنقةٍ قد فقدتِ القدرة على إنباتِ الصوفِ...كنتُ كذلك،نفس الأسيرْ داخل كيانه المعتمْ،هاقد جاءوني بزيارة،لربما رأوني أمد يدي لأتحسس سهماً من الضوء يأتي من شُقّ نافذتي الخشبية،مهلا...لا لا لقد أحضروا أسيراً آخر،فبالكادِ وجدوهُ مختبئًا في حقلٍ ماً خوفاً من الموتِ،يا ترى اين سيذهب هؤلاء المستسلمونْ،أليس هنالك نفقٌ يحمي منْ لا يريدُ الحروبْ،تذكرتُ

تسليةً،حينما باشرتِ الحربُ نفسها،كانتْ الحياة طبيعية جداً مثالية لا تقاومْ،لا أحد منَّا فكر في شيء كهذا سيحدثُ،وبينما المائدة مملوءة وكل فرد من العائلة ينتظر الآخر ليأتي فيباشروا في الأكل،سقطتْ قنبلة على رأس الجميع،كانتْ اول تهدئة قبل الفطورْ،فمنْ تراهُ سيظن أن الفطور كان قنبلة،لقد تناثرت أشلاءنا،والناجي من تأخر في الحمامِ،هذا أنا،أنا الشخص المشاكس في العائلة،كل الأشياء التي يحاولون زرعها فِيَ أنتزعها مني بفطرتي المراهقة،فكنتُ دائما أتأخر في المجيء لتناول أي وجبة،حتى الحمامُ صار في ملكيتي،وقد وعدني والدي أنه مادمتُ أتأخر فيه لنصف ساعة على الأقل،فإنه سيكونُ إرثي من المنزلْ.. هذا التأخر كان مفيداً،ففي بعض أحيانِ يكونُ التأخر أفضل من الحضور في الوقتِ،ويكون الإعتذار أفضل من التبرير،ها قد ذهبتْ ألف أسرة الى الجحيم ربما،والجنة ربما منْ نصيب كل منْ لم يقترفوا ذنبًا بمجيئهم الى هذه الدنيا،هذه الحضيرة المملوءة بالأغنام الميتة سرعان ما ستتحول الى مقبرةٍ ترعى فيها الذئابٌ ما تبقى من أيتامِ الحروبِ.. دعتني والدتي ذات مرة : أيها المشاكس كم مرةً عاقبتك على البقاء مطولا في الحمام،لا أظنك تفعل كوالدكَ تقرأ الجرائدْ،ولكن من الواضح أنك تلعب بالهاتفْ !

لقد كانْ آخر شجار بيْننا،وظلتْ هذه الجملة تَنخر في ذاكرتي. كالفأر الذي صارَ يَعُدُّ الشباكَ عدواً لهُ،كيفَ لشخص مثلي صاحبٌ عقلٍ يشكل أرضية لمعركة بين الذكرياتِ..ذكريات الماضي الفقير،وذكريات البارحةِ التي تطبعتْ بذماء المساكينْ،إنسانية فقيرة حينما ترى أن

الحروب أيتمتْ نصف البلدْ والنصف الآخر نقلوه الى المقبرةِ،لزلتُ أذكر حينما ساقونا كالخرافِ الى السجنِ،نصفنا سيقَ الى المذبحة والآخر الى زنزاناتِ،لربما كنتُ محظوظاً بهذه المحاولة الفاشلة في إنهاء مصيرنا البائس،كنا عبيداً لتلك الذئاب الأرستقراطية،كمْ خُدلوا في الرهان علينا،لأنه بالكاد مشتاقون لجعلنا نحن الغرباء معلقين في أشجارهم المشوكة التي تروضُ أشرس الديوكِ على الإطلاقِ،تلك الديوكُ التي تصيحُ مل صباحِ بأحقيتها في الاستحواذ على الشروقِ،لزلتُ أفكر في مصير طفلٍ في الرابع عشرة من عمره قد إنساق معنا الى هنا،فشبابي لامعنى له فيما يقاصيه هذا الصبي،إنه أتعسُ منْ أنجبته أوضاعُ المقلقة،هذا هو إنسان الغد الذي نريده أن يقود أمة الى الصلاحِ،فأصلحوا نفوس أبناءكمْ،فلسنا بحاجة الى التافهين لقيادة قطيع من الفئرانِ الساذجة..

ذاتَ مرة جاءني سجانٌ غبي،فأعطاني هاتفاً في الخفاء هاتف قديم الطراز ثم قال :

خد اتصل بأقربائك ليأتوا وينقذوك لربما يكون هذا أملك الأخير ببعض قروشٍ..

لا ...لا . شكراً لوفائك المصطنع أتريد مني أن أفسد جوَّ المقبرة بمكالمة هاتفية بائسة أطالب فيها عائلتي الذين ماتوا في تفجيركم العنيف لينجدوني من مصيري البائس؟ حقا تريدني أن أفسد حفلتهم،خده لسجين غير يتيم مثلي. ..المواقف تفضح صاحبها،فتظهر الطبائع الحقيرة منها

والبريئة،والى اليوم البريئة نجذها تحت حطام آحدى المنازل المهدودة،نحن في مقبرة مهجورة.كما يقال اغلب أحياء هم أوغاد بالفطرة.

بدأتُ أنسى نفسي،فكيف لا ينساني أحد؟وأنا نفسي قد نسيتها،مرعبٌ أن تعيشَ في ذاكرة الماضي التي تخلى عنها الجميعْ،لاأحد يلْتفتْ ليراكْ،غيرَمن يودكَ أن تعودَ الى الوراء بأضعافِ،لننسى شقاءنا قليلاً فكترثُ التفكير في الأشياء السيئة تجعل النفس تسيءُ الحكم على الباقي،لتجعل العقل لا يقبل لان يثق في إرادته،ليذهب النومُ لينا موا تبقى العقول تفكر في أشياء التافه حتى الفجر.لزلتُ نفس الأسير الذي أحضروهُ البارحة،كادوا يشنقوه لولاَ أنَّ أحدَ المحاسبين لمْ يخطئ في عَدِّنَا نحن الخراف الظالة،قالوعنَّا عبيدْ،أسرى الحروب الذين لايصلحون سوى لمشقة أيدي أومشنقة العدو،تركنا جثتنا في مكان سقُوط أهلناَ،ها نحنُ ننتظرُ موعدنا لننتهي من كل هذا المزاحْ،لقدْ كنا أسْوء خرافٍ قد تقع في شباك ذئبها العزيزْ،لقد وضعوا ألغاما تحت بيوتنا ونحن نيامٌ،نحلم بمستقبل مزهرٍ..مُستقبل هذا الذي سنرى فيه ما يحلوا لنا،نرى فيه الشباب يرتكنون الى بساطة العيش،مع قناعة الشيخ الذي تَبَقّى له القليلِ لكي ينهارْ،بعفةِ تلك الفتاة التي تخافُ على عرضِ أبيها من ان يلطخ بزيوتِ الحشدِ العفنة،فما الزيوت إلا تلك النوايا البائسة التي تكسرُ حيل المرءِ،جارحٌ أنْ يأتي ذئب من الخوالي ليخبرني أن ابنتي فاسقة،متبرجة،تُساق الى النخيل كنعجة تحب الربيع على ظهر الذئاب

الماكرةِ،فلا تنْهار لما قدْ ستسمعه،فحاضرنا أسوء من ماضينا بكثير.إن هذا الوالِدُ المأسورُ في وطأتِ قدميه،وبقايا أقدام النَاس الملطخة بالطينِ،ليسَ ما يضرهُ غير ما قد يسمعه من أفواه الثعالب التي لا ينفع فراءها أحداً،فكيف يا ترى سيشعر من يشقى لعرضه،ليأتي منْ يسلبه إياهُ،هذا الإنسان المسجون في تقاليده الماضية،ليس على خطأ ولكنه بالكادَ يريدُ أن يُنْجِبَ منْ هو اصلح منه ،ماذا لو أنجب غير المنحرفين ؟

معتمة هذه الغرفة،لمْ أعتدها هكذا من قبلْ،لربما سوادي تسلل الى سوادها فأكسبها رونقي،وضخامة همومي الثائرة،الجميل في الأمر أن مخاوفي لم تتسلل بعد الى المشهد،رغم أني لزلتُ أتغزل بهذه الأعمدة الحديدية ،لستُ أعلم مصيري،وأي مصير لأسيرٍ مثلي إما العدمَ أو الأعمال الشاقة،كلاهما لا يروقان لجسدي الهزيل،حينما ستؤسر يوما ستجتاحك كومة من الأفكار التعيسة،ستفكر في مصير هذه الإنسانية المثعبة،هل لها أن تستفيق يوما من غيبوبتها؟،ستفكرفيما قد يحصل مستقبلاً،فحينما يجلس الإنسان مع نفسه يبدو حكيماً جداً،ومع الحشد أغبى مَنْ رمَتهُ شرنقته..كُلُنا أسرى،والأبله منْ قال غير ذلكِ ،الأسير ذلك الذي يخافُ على أطفالَهِ فيسجنهم في بيته كي لا تنخر عظامهم بسهامَ الغُزاة،إنه ذلك الوالد الذي يرى نفسه كسجينٍ يُطعم أطفاله من سجنه،إنه منْ يحن الى الماضي،فيعيشُ حاضراً أسوء منه،ألأسير ذلك العاشق المجنون الذي كان يود إفصاح عن حبه لمعشوقته فرمى سهمه إليها فأخطأ التصويبَ،لأنها بالكاد وقعت في شراكِ ذئبٍ جائعْ،سخيف هذا الشعور

الـذي يجُـرُّكَ الـى النـذمِ،كأن تعطـي إهتمامـاً غيـر مـألوف لأحـد لتجـدهُ يعطيـه لأحـد آخرْ،لينتهـي باهتمامك فـي محـل بيـع الخردة،الأسـير مـنْ عـاشَ خريفـهُ بمفردهِ،فتسـاقطتْ جُـل أوراقـه دون أن يكـون عليهـا شـاهدُ.هو ذلـك الـذي يخفـي فـي أعماقـه بقايـاهُ المنكسـرة،التي يصـعب لَـمُّهـا،إنهُ ذلـك الأحمـق الـذي يعـيشُ مخـدوعاً فـي صـور النـاس المثاليـة،يبقى مرهونًـا بأكاذيـب أولائـك المجرمـون الـذين أخطـأوا فـي حـق الإنسـانية،ليسُ عجيبـا أن تـراهم يدرفـون الدموع ولكن المبهر أن تجذهم يعترفوُنَ بالخطيئة.....

هـا انـذا أتوسـد صـخرةً لا تقـارن بوسـادة منزلنـا الفخمْ،أليس عبثيـاً أن يضـعوا وسـادة كالصـخر فـي زنازنهم،أهـذا عقـابٌ أمْ جـزءهُ المفضـل،لقد تصـدعت رقبتـي منها،ولكنهـا كافيـة بالنسـبة لـي،منْ أن لا يكـون هنالـك شـيء فينعثـونني بالميتِ،فمن يـا تـرى قـد يرانـي وأنـا أحتضـن معشـوقتي،لينعثُوني بـالمنحرف البغيضْ،وضـعوا القليـل مـن الأكـل مـن بـين القضـبانِ وانتظروا الفـأر ليخـرج مـن ظلمتـه،لربما يحـاولون التأكـد مـنْ أنـه لا يـزال محتفظـاً بمكـانٍ يخلـو مـن الإصابة،فلسـتُ فـأراً غبيًـا يقنعونـه بقطعـة جـبنٍ رخيصـةٍ،فلو فكـروا قلـيلا لأحضـروا لـي فتـاةً جميلـة مكـانَ الجـبن فـأخرج سريعًا...هذا هو حال كل الفئرانْ.

مـرةً جـاءتني محققـة فاتنـة لتسـتجوب كيانـي،لتأسـره بمفاتنهـا الباهظـة،فلمْ أكـن مجـرد سـجينٍ مأسـورٍ فـي نفسـهِ قبـل زنزانتـهِ،ولكني كنـتُ طُعْمًـا مسـموماً يريـدون إلقـاءَ بـه وسـطَ حشـد مـن القطـط الجائعـة ليفضـي الأمـرُ الـى نهايـة مأساوية تفوحُ منها كل الجثة المنسية،فقالتْ :

- *اليسَ هذا الجمالُ يستحق فرصة لنيل حريته؟*
- *لا أظنه يستحقْ!*
- *ولمَ لا يستحقْ،فكثير من الأسرى نالوا حريتهم بهذا الإستحقاق؟*
- *أتقصدين حريتهم الابدية ام تلك التي يحلمونَ بها؟*
- *ما الفرقُ بينهما في رأيك؟*
- *الأبدية هي العدمْ،هي النهاية المحتمة لكل إنسانٍ،أما تلك الازلية ما هي إلا وقتٌ وجيز ليستعيد فيه الجلاذ قوتهُ ليعودَ فيخط بسوطه اليافعَ ظهر ذلك المسكين..*
- *إنكَ تبدو متفلسفا أكثر من اللازمْ ! حقًا أثرتَ إعجابي .*
- *أحقًا ما تقولين؟ هيا لنتزوج؟*
- *حسنًا لكن بشرطٍ أخبرني كل ما تعرفهُ وعما لا تعرفه ..*
- *إني أعرف الكثير،ولكني فقدتُ الذاكرة منذ أن أحضرتموني كعبد وضيعْ،ألم تتعلموا حسنَ معاملة الأسرى،فأفضل معاملة تجعل من أعند أسير يبوح بما فيه..*
- *تبدو عنيداً مقارنة بسنكَ يا فتى..*
- *تبدين جميلة وفاتنة مقارنة بسنك يا جدتي..*
- *لقد إنتهى النقاشُ وغدا ستعدمْ،جهز نفسكَ لتقابل جلاذناَ المخيف..*
- *ههه حقا لن يكون مخيفًا أكثر من وجهك يا أنسة..*

كان أول شعور يسقط مني، ....لقد فعل..سقطَ ثم صار له جناحينْ،وبدى لي يحلق كالفراشة التي كانت تثوق للحرية في سجن ما،ظللتُ أخبرهم أني لم أجن بعد لزال عندي القليل لافعلهُ، ولكنهم تأكدوا بعْدما رأوني أَلحَق بمشاعري،تمنيتُ لو أستردَّ عافيتي بهذاَ إتباع المُقنعِ لكل ما يبدو لي جميلاً،لكنها كانتْ مجرد خيالات تأتيني من شق نافذتي داخل نفس الزنزانة،حثما لقد شَقتْ،فتعبتْ معي طويلاً،أفكر كيف لها أن تستحمل كارثة بمثلي حجمي وأنا نفسي لمْ استحمِلها قطْ،كيفَ لمأسورٍ مثلي أن يعيش في قبسٍ من النور يتسلل في الخفاءِ كمجرمٍ جبانٍ بريءٍ ليسرق لنفسه لحظة من الراحة الأزلية،لست أرى نفسي مأسوراً بل أنا اكثر من بلغ قمة الحرية،منْ المأسور فينا هل هو أنا الجالسُ تحت ثعبي أم أولائك الذين يعيشون في الخارج محَملينِ بأثعابهمْ؟

أنا لستُ أسيراً فكل ما يجعل مني كذلكِ،أجهظتهُ فحتى حطامي النفسي تركته في منفاي وعُدْتُ بلاهُ،ما عُدتُ أخدعُ ولستُ مضطراً لأصدق مجرمًا ناولني كأس كحوله المسموم،ها أنذا أصيح لآخر يومٍ في حياتيٍ،لستُ نادما ولا قليلا عمَا فعلته منْ قبلْ،إني راضي تمام الرضى عن حالي مادمتُ سأعدمْ،سأنفى الى عالمٍ لن أرى فيه ما يخدشُ حيائي ،فيقتل عفتي،ويعدمَ فضيلتي،لنْ أكون هنا لأرى أولائك المحبطين يتحسرون على أبناءهم المنحرفينْ،سأموت برضاي بشيء من الفخر لأني لمْ أرثْ في سلالتي مرضَ عاهرةٍ مسلوبة القوامْ،لنْ أفتخر سوى بموتي كإنسانٍ بماضٍ أليمْ،لنْ يكون عليَّ أنْ اسمع من اطفالي صراخهم

المرعبَ على رفاَتي ،لن يكون هنالك مانعٌ في تقبل العدمِ بصدرِ الرياضي المخادعِ،بحيلة المهرجِ النائمْ.لا تخافوا من الموتُ إنه لحظة تشعرون فيها بأنكم ستنامونَ الى الأبدْ،تشعرون بأنكم لا تزالون تتُوقونَ لهذه الأرض الغريبة،لا تعودوا إنه فخٌ واصلوا السير لتلك الحياة المجهولة لربما تجذون فيها ما يروق لنفوسكمْ.....

" صديقي لستُ يائساً على ما سيحدث ليِ،بمجرد ما سأموتُ ستراني كالمنزل المهجور الذي لن يكون له فائدة،لا تبكي لوضعه لأنه بالكادِ يَحوي طيوراً وحيواناتٍ كانتْ لتكونَ أفضل من اي بشري ...."

-٢-

ذات الّخريفْ "

نفسُ الإنسانْ تشاع جنازته للمرة الثالثة بعدما أخطأوا في قتله مرتين ،نفسهُ من أسقطَ إنسانية التي كانت تعتلي حضنَ الأمةْ،اليوم بدى فارغًا تحاكُ فيه الفتنِ ....

في حلْكة الليالي الموجعة،تحت سريرٍ من القطنِ البالي المثير للغثيان تجلس صغيرتناَ .ماسكة قطتها الأليفة،كلاهما مرتعبٌ من وحشِ النسيان،من بقايا ذاك الكائن العدواني صاحب الفأس الحديدي الذي يأتي كل خريف لينتزع رؤوس الأشجار بفأسه،يا ترى لمَ تأخر اليوم أتراهُ فقد حماستهُ في ترويعنا أم أن الرعبَ ما عاد من خِصالهِ،لقد ماتَ الوحشُ،وجدوه مقيداً مقطعاً الى أطرافٍ،والمرعبُ في الأمر أن الفأس هو من قام بكل شَيءْ،أليس مرعباً أن يخونك أصدق من كنتَ تثِقُ فيهِ، عَادةً ما نكُونُ شديدي التعلقُ بالتفاصيل،بل ترانى كمن نثر عليهم سحرٌ أفقَذهم البصر فلا نرى في الآخرين غير محاسنهم أما مساوءهم فقد نُفيَتْ الى العَدمِ،فلا تضع العلمَ الأبيضَ مهما جرى،ولا تستسلم لبياضِهم العجيب ولا لصدقهم المزخرف،فكل شخصٍ وضع قناعاً سرعان ما يسقطُ منهُ كاوراق التي تسقط من الشجرِ..

يومٌ ما سألتني طفلة " لِمَ تكرهُ الخريفْ ؟ أليسَ منظرهُ جميلاً ومذهلاً؟اراك كلما رأيتَ البعضَ يرقصُ على بقايا الأوراق الحمراءِ

المحتَضرة،تلعنهم،وتشتمهمُ بقولكَ،"أنتمْ من قَتل الإنسانية"،لَمْ يكن بِودِي أن تسألني بدرة صغيرة عن تاريخ الأشجار كلها،ولكنني تمنيتُ لو أن هنالك شجرة تسألني عن نفسها وعن ما عليها أن تسأل عنهُ،فالخريف مقبرة للمنهكين لدوي الأجسَاد المتَكهلة على وشك أن تندثر كأوراق الخيزران المنسي..لقد نسينا الخريف بل مرَّ سريعًا كالأجيال المنْسية،مثيرة حقًا تلك مقبرة لو أننا تتبعنا موتانا لوجدْتَ في الأرضِ ثلاثون طابقًا وكل طابق يحمل في بقاياهِ آلاف الجثة المنهارة،كل يتوسد متاعبهُ..أليس الأمر مفرحًا لا تزال هنالك مساحة لنا نحن الأوراقُ اليانعة المريضة،تُرعبني النظرة الى التفاصيلِ،إنها كمن ينقب عن حظه في بركة موحلة يظنُّهُ بَراقاً قد يشع في أوَّل مُحاولةٍ،إننا تلك الأوراق التي ولدِتْ ثم سقطتْ في اللحظة ذاتها،الكل يصيبُ بقولهم أنه نصيبْ،لكن النصيبُ يغيبْ حينما ينظرون في عينيْ الحقيقة وهُم عُراَة،كمْ هم مضحكونَ أليسَ من مثلهم أن يحتشم ويشعر بالعار قليلاً حينما يتصدعُ صِدقُهُ،ويَظهر نفَاقهُ الذي كانَ بِه يُنعَتُ كنَبيلْ،قيلْ :

حينما يُبْتلى المرءُ،فإن الفرج قرِيبْ،فمهما طال سيأتي وإن كان على بُعْدِ ألف ميلِ..ولكني الى اليومِ لم أرى غير ما يَسُد الأبْواب لا يفتَحها،فمن يقْصد فَرَجَ النَاسِ وحنيتهم ماتَ منتظراً العيونَ لتتبع من الصحراءَ،أما فرجُ الله فمهما طال وإلا وفيه نصيبْ،فلا تكثر الطيبة مع أحد تظنه يزن الذهبِ،فالذئاب حينما تجد الوليمة كبيرة تبني عليها وكراً لتعيشَ منها لوقت طويلْ..

ذاتُ الخَريفْ،الخَـــريفُ نفســـهُ ولكـــن بـــأوراقٍ متســـاقطة جديدة،إنـــهُ جيـــل يسْـقطُ بتِعَـبه ككل جيلْ،والسؤال من سيبقى الـى النهايـة ،إن البشـر كـأوراق الشـجر المتلاحقـة،يفنى جيـل وتولـد أجيـالْ،لكنْ مـن يبقـى شـامخاً معلقـاً هـو الأخيـر علـى رأس شـجرتهِ لا يسـمونهُ قويـاً ولا عظيمًـا بـل الفاشـل الوحيـد الـذي لـم يفنـى مـع الحشـدْ،أتراهُ سـخطتْ عليـه الألهـة فلـم تسـمح لـه بملامسـة الأرضِ قطْ،ألـيس عقابـاً عنيفًـا أن تظـل واقِـفاً دون إذنٍ يجعلـكَ تـريح أقـدامكَ..أحياناً أرى أن الخَـريفُ ولـدَ للمتكاسـلينَ، لـمن يسـقطُ أولاً ،ومـن يثعبُ أولاً .. يبدو أن الكل يحب . الخَـريفْ،ولكن الحقيقـة الكل يحبُّ سقوط الأوراقِ المهدودة،أليسَ عجيباً أن نحبَّ شيئاً يسقطُ لأنه مثعبْ !

إنهـا طبـائعُ مسـلوبة هاتـهِ التـي تحـبُّ منظَـر السـقوطِ والتـدميرْ،إنها تَـتُوق لـذلكَفلو أُبِـيحَ لهـا لمـا رأينـا خريفًـا أسـوء منهـا..كثيراً مـا نـراهم يتـأملون وقـوع الكارثـة بكـل نباهـة،وحينما ينتهـي العـرضْ يطـالبونَ حسهـم النبيـل بإعـادة المشـهدِ،إنهم يلتقطُـونَ السـقطةِ بمشـاهدهم المحترفـة ويتركـونَ الساقطَليحسـمَ المشـهدْ،إنهم النابغـة التـي تـركض وراء الفضـائحِ حتـى وإن كانـت علـى حسـابِ الأرواح البريئـة.ذاتَ مـرة وقـفَ شـابٌ علـى سفحٍ يحـاولُ إلقـاء نفسـه مـن عليـه،فياترى هـل هنالـك مـن سـألهُ لمـا يـودُّ تجويـع إنسـانية بهـذا العقـابْ،لا أحـدَ سألـهُ،الكل حمـل هاتفـهُ الملعـون وصـاروا يوثقـونَ للمشهدْ،ليـبيعوه فـي السـوق الوهميـة للحمقـى،لم يكـنْ هـذا سـوى مشـهد واحـد مـن بـين ألفْ،سَـقَطتْ الإنسـانية مـن علـى شـجرة الحيـاة تلـك التـي كانـتْ تفضـل القـيمَ والأخـلاق واليـومْ تراهـا تُـسقطُأوراقًا لجنـي القليـل مـن

المالْ،فمن دفعته نفسه لتفضيل المادة عن أخلاقِ والفضيلة ذلك ليس إنسانًا بل شبهَ كائنٍ يحول ما يراه لمنجم يدِرُّ عليه المالْ،اليوم إلتقطوا صوراً فجَنوْا القليل وغداً سيقتلونَ وسيصورونَ كما لو أنهم بريئونْ،فالطمعُ مرضٌ نفسي خبيثٌ لا يوجد له علاجْ..إني أسميهم أخلاق الباعة،هؤلاء الذين يبيعون أي شيء مقابل النقود ؛ فلا تستهن بهؤلاء فهم أنانيون جداً يتركون أعضاءهم ويتاجرون في أعضاء الآخرين،حقا إنهم أوفياء لأنفسهم ...

فصل مغاير وقصة أخرى من بين أعضاء الإنسانية المحضورة،نفس الكائن يعيد الحفلة،مادام الحشد أحب النبرة،الكل وراء القافية والمطرب يَسكُب الخمرة،راح يحرك أطرافه تماشياً مع لغطِهِ الفضيع،لم يحبوا سوى الإيقاع ومنظره أبشع من ساكبة في حيّنِا الجميل،حقًا الأذواق الراقية لا تولد من الطباع المريضة فالمرضى اليومُ يسقطون ليسَ لمرضهم ولكن لذوقهم الخسيسِ في الموسيقى،فكثير من أهدمه لحنٌ يظنه أفخم ما انجبته الحناجر المبحوحة،فالأذواق الراقية لا تنهبُ سوى من الآخلاق والفضيلة،فمَن راقَ له في اللحن غير الشتيمة فذوقهُ معاقٌ قد يجرهُ الى الوليمة كَالبهيمة...فلنُسْكتِ لغَطَ البهائم بالقليل من العشبِ ،بل ببعض الموسيقى البهائمية التي لا نرى فيها غير لغط الخراف الجائعة.

لستُ أريد إسكاتكم بلحني الغريب،ولكني أحبُّ أن أجهر وأصيحَ بما فيَ من قوة،وبمنتهى البساطة. يحزنني أنهم يظنون أغلب الحشد خرافاً يتناسَوْنَ النُّمور السوداء وباقي عشيرتها الحيواناتْ...

ليلة مهاجرة تحمل ظلمتها فوق أكتافها؛فتنظر بمهل مختنق لكل من إعتادها كأنها لن تجدد اللقاء تانية،بحسرة دامية وجريمة لن تغتفر،إنها ليلة مليئة بالخريف فكل الأزهار التي كانتْ تُضيء العُتمة اليوم صارتْ تنْدر بالزوال،كل النجُوم أحبَّتِ الأرض على البقَاء سامرة في الجو مع ذلك القمر المتَفاخرِ،ماذا ظننتَ حينما رأيت كل الأقوياء يرومون المنحدر نحو الإنحطاطِ،كانوا ليقدروا ماهُم عليه،غير أن نواياهم لم تقدر ما كان لهم ان يفكروا فيه،التفكير نحو السفحِ،والنوايا الى القَاعِ،ظل إنسان متردداً حتى في التفكير بحرية أكثرْ...غالباً ما نلوم السفحَ على كل سقطة،ألن نقلب الأدوار هذه المرة لنلوم المنزلق نفسه،أليس يجيد غير إلقاء اللوم على الآخرين،مرة في حياتك قم بشيء أنتَ راضٍ عليه بكل جرأة،أؤمن أن هنالكَ منْ يجيذ فعل ذلك.

لا نزال في الخريف ،لم ننتقل بعد للشتاء،نحن اليوم في القمة نشاهد من يسقطُ فلا ينهضْ،كل من سقطَ توسد الأرضْ،وكل من لم يسقطْ أضاعه البردُ،كلنا الى الهاوية ومن بقيَ في السطحِ عَاش دَهْراًوَمَاتَ دَهْرَينِ.فلا تربط أمالك بالساقطينَ بالذين يتفاءلون كثيراً عند السقوطْ،فمن أحب السقوطَ أحبَّ فشلهُ ومن يحب فشلهُ لن يربطه بالنجاح غير الكرهِ وتلك الآمال الرهيبة التي لا تنتهي.فالنُطِلَّ على القاع حيث يسكنه الفاشلونْ تراهم يتسلقونه ببراعة الملاكمِ الشرسِ،وبمظهر الصرصور المغامرِ،إنهم يحبون إلتصاق بأي شيء مادام ذلك الشيء قد يبرر إخفاقهم الدريعِ،أرأيتَ يومًا سرباً من النمل يتسلق تيابكَ بسرعةٍ

متوحشةٍ ورهيبة،أظنك فعلتْ،وهم كذلكْ،فقطْ يريدون كسرَ قرنيكَ، وشموخكَ، يتحسسون من النجاح فقط لأنهم فاشلونْ،هذه الفصيلة المنتشرة في عالمنا هي وسيلتنا للنجاحِ ،للتفوق أكثر،فأكثر الفاشلين ليسوا فشلة ولكنهم لم يتعلموا من فشلهم أوأنهم صاحبوا الفاشلين فلم يأخدوا قصص نجاحهم بقدر ما إنتقلت عدوى الفشل إليهمْ،فمن قال أن مصاحبة الفاشلين شيء سيءٌ ليسوا مُصِيبين حتمًا،فالفشل في شيء قد يكونُ نجاحاً في شيء آخرْ،والمرعبُ أن يَكونَ المرءُ فاشلا في كل شيءْ.فيوقتٍ مضى كانَ هنالكِ توأمانِ،يعيشانَ مع بعضهما،وحينما بلغا سنَّ الحادي عشرة،إنفصل أبويها،بسبب مشاكل أسرية،فالزوجُ يرجع السببَ لزوجتهِ وسلالتها، ونفسُ الكلامِ ينطبق على الزوجة وكل أخد واحداً،وكل طفل عاش في بيئة مختلفة مع أنهما نفس الشخص ونفس الجسد والإختلافُ في النفوس .لقد كَبُر الطفلانِ بحقدٍ مضاعفٍ،فمن بقيَ مع الأمِّ كره الأبْ،ومن بقي مع الأب كره الأمْ،وهذا الحقدُ ما هو إلا نتيجة لما قيلَ لهمْ عن منْ تركهمْ،فهكذا تولد الثمار المريضة من أشجار التي لا تصلحُ لِتُنبتَ شيئاً فآخرها إما سيعيثون فساداً قيمياً ليخرجوا الى الشارع كسارقين،كمنحرفينْ،كمتسولينْ،كأناسٍ لا يصلحونَ لشيء.ظل الفتى الأول مع أمهِ حيثُ يعيشُ نصف حياة،لكنهُ يجد التقديرو إهتمام،فيشجعونه ويباذرون في تعليمهِ حتى أن بيئته التي رُبِّيَ فيها تبعث على إبداعِ والتفوقِ،عكس أخيه الذي يعيش مع والده الذي لا يكاد يراه سوى في عطلة نهاية أسبوعِ،يعيشُ وحيداً،لا يهتم لأمره أحدْ،فهذا الإنسان

الصغير يعتكف عن الإبداعِ والنجاحِ فالبيئة التي تدفعه ليبدع غائبةٌ،الطّفل الذي لا يوجد من يرعاهُ يصابَ برهابِ حتى من النجاحِ.لدى فالبيئة هي أولى من تخلق الناجحين أوالفاشلين...لا تجلس في مكانٍ لا يروقكَ مهما جرى لأنه سيؤثر بشكل قاسٍ على ذوقكَ وإختياراتك القادمةٍ،وهذا ينطبق على شريك حياتك.

لقد كان خريفا قاسيا عليَّ يا لوسيِ،ظننتهُ بريئا لكنهُ كان المجرمْ،لقد كذبْتُ على نفسيِ،خَدعتها هذه المرة،ربما خُدِعْنا معاً،إنطلت الحيلة على الجميعْ،ولمن لم تنطلي عليه فاليرفع جثته ويغادر المقبرةِ،نحن لسنا بحاجةلصالحين،لأطفال يتربعون على رأسِ عشائرهمْ ،لسنا في حاجة الى المرضى،ولا إلى باردي النفوسْ.نحن في حاجة الى تلك الشعلة الدامية التي قد تحرقُ الحشدَ،فالأمر ليس أننا نثوق الى جوّ دافئ ولا الى حرارةٍ زائدة،لكننا اليوم في حاجة ماسة الى من يوقظ من أعشابِ الرمادِ ما ينال من الإنسانية،ما يجعلها حاضرة في النفوس الخصبة..النفوس المحتضرة.أليسَ نبيلاً أن نتوقف عن التفكير في الحشد بمثل ذلك العدوا المثابر الذي يصلح لننسب له كل الفضلْ،وكل غلطة،فالانسان الجيد من يتحمل تبعاتِ أخطاءهِ مهما كانتْ قاسية،فنحن نتعلم من أخطاءنا لا من نجاحتنا.فحياة إنسانٍ كأرجوحة كلما علتْ بهِ الى فوقْ إلا وكانتْ سقطتهُ قاسية ومثعبةً.فالخريف ماهو إلا صحوة أتناء النومْ،إنه كابوسٌ مرعبْ لكنه مقبول لأنه حقيقة أبدية،فقد يموتْ ألاف في الخريفِ،يخسرون رهان الحياة،ليولد ألفين في الربيع برهاناتٍ أقوى وأنضجَ ،سيأتيني من بين

النيامِ منْ قد تراهُ ساهياً،ليخبرني ما دخل الخريف في كل هذا ؟ أليس ضرورياً أن نبكي قليلا على موتانا لنعترف بقداسة العلاقة بيننا،لمَ لا يبكي غير القريبْ ؟

إن خريفي ليس فصلاً تتساقط فيه أرواحْ فقطْ ولا هو بداية لنهاية مأساوية لملوكِ النذم والإنحطاطْ،إنَّ خريفي هو فصلٌ حيثُ ينتهي بالإنسان مغتشياً في قبرهِ،إنه حيثُ تولد الفصائل الجادة التي تنقبُ عن نفسها في الجوّ،فليسَ غريباً أنْ تجد مَنْ يغني ملفوفاً بأغانيه يصرخُ لمنْ لاقاهم تاركينَ أنفسهم،متجهين لحضيرة حيثُ يجتمع الحشدْ بقوله أنا المخلص الأبدي،أنا صاحبُ الصوتِ الرنانْ الذي تسمعونه ينط من الجنة،فالذي يبحثُ عن نفسه خارج الحشد سيجذ غير الحشد في نفسه،ومن وجد الحشد في نفسه فلا يلومن الحشد ؛ بقدر أن نفسه قد إعتادتْ ذوقهُ(الحشد) وما عاد أنفه يستطيع شم غير رائحة حضيرتها العشبية،كمْ يضحكني أن ألقى منْ لا يمكنني أن أبتاعهُ بعيداً عن حشدهِ إنه مخلصٌ لرائحة قطيعه وأنوفهم التي لا تشتم غير العفنْ،فلن يكونَ أطفالها غير تلك الخراف الضريفة التي تقدم نفسها كوليمة كلما أبانَ صديقنا الذئب عن أسنانه الجميلة.حقاً يولد الساذجونَ في بيئة مخادعة....فاحترس ممن يفْرُشوُن الأرض بالورودْ،فلا يرقص الذئب إلا حينما يحاول خداعَ فريسته...إني أؤمن بأن الخريف لم يولد للفصائل المهدودة والمثعبة،لقد ولدَ لمن يصلح للبقاء طويلاً،إنه وبدون شكْ يصلحُ لأي شيء،فالذي يسقط أولا لا يعدو أن يكون سوى أحط الناس وأثعبهمْ،فلا يجب على

المرءِ أن يحب السقوطَ فمتعتهُ رائعة تُفرحُ الساقطينَ وتردهم الى القاعَ في شيء من الانحطاط الجميل ،فكتير من أحبَ سقوطَ وقليل منْ تعلم منهُ...داتُ الخريفْ،إنه نفسُ المثعبون يسقطون كل مرة،ولكن اليومْ سقط من لا يجيد القيامْ،والمثير للرعبِ ما يوجد تحت هؤلاء الساقطونْ،ماذا لوْ كانوا بالفعل متسترينَ على رسائل وقوعهم،وقوعهم في الحب ربما،أو في المكائدِ.....هذا هو إنسان المنْسيْ..كانَ غبياً يجلسُ كالعادة فوق مرجوحة الأطفال الصغار،ففي كل مرة يأتي فيها أطفال للعب فيها يحكي لهم قصص مرعبة عن آخر شخص رَكب تلك الأرجوحة،وغالبا ما يقول أنه تعرض للعنة جعلتهُ ملتصقًا بها ،إنها قصصهُ وهو صغيرْ،أليس عظيماً أن نرى من كانَ يهابُ مكاناً في صغره ،اليومْ يقصدهُ دون كللٍ أو مللْ،لقد صار في التلاتينياتِ وكل من رآه يجلسُ فيها ناداه بالمجنون الأبله،وهذه الصفة الرائعة فيه ليس لأنه ثلاتيني بعقل طفل صغير،بل لأنه بالكادِ لا يتركُ فرصة لصغارهم بركوبها،إننا لا نخاف من الوحش ولكنَّ المقدمة تكونُ مؤثرة جداً..إنه يثوق لحياة الصبى المخيفة،تلك التي لا تهتم لتساقك الأوراق والأرواح الخريفية،إنه فعلا يستحق فرصة تانية ليسقي نفسه بشيء يجله عجوزاً أفضل،عجوزاً يصلح للموتِ كغنيمة دسمة بها تكفُّ عن أخد المزيدْ،لزلت أذكر جملته الشهيرة المفعمة بالحماس " حينما لا تجدون جثتي على هذه أرجوحة،فاعملوا أن صاحبة اللعنة قد عادتْ لتسترجع لعنتها "..والمثير أن احد الأطفال الحيّ الأشقاء خرج لتوه في الليل كانَ اكثر شجاعة من صديقنا الثلاتيني،إنه يريد أن

يغزوا الخوف بخوفه،لربما هذا هو المخلص الافضل لهاته البشرية التي ترتعب من أقدامها المتسخة في الليل،فحينما إقترب الطفل من الأرجوحة لمْ يجد الثلاتيني فعادَ مسرعا الى بيته يغلق ابوابه بكل قوة فيصرخُ في وجه ابويه وقدماهُ مملوءتان بالترابِ،يصرخُ هلعًا " لقدْ أخذته..لقد أخذته الساحرة..منْ الذي اخذتهُ..ماذا تقول ؟ العجوز الثلاتيني أخذته الساحرة إنه لا يفارقُ أرجوحته ولكنه اليوم إضطر لمغادرتهاَ،يا اسفاهُ...وظل الفتى يبكي حتى إحتضنته أمه فصارتْ تحكي له قصصاً خيالية عن صديقنا الثلاتيني الذي قاتل الساحراتِ وفازَ بالسحرْ،غير أن الثلاتيني لمْ يستطع البقاء بجوعهِ طوال اليومِ متمسكاً بطفولته المعثمة،تركَ الأرجوحة وذهب الى منزله ليأكل شيئاً يصرف عنه جوعه،لقد خدع الطفل وصار عليه المقلبْ،فلم يستطع الثلاتيني العودة الى صباهُ،فالجوعُ أفضل منٍ لا تمرُّ عليه المقالبْ.. واقعيٍ يعيدُ كلَّ الشخص الى مكانه...كثيراً ما لا نكترثُ لما تبدو عليه الذكرياتْ،بل ما بيني ذاكرة الماضي من أحداثٍ منسيةٍ،حينما أبرحوك ضربًا وأنتَ تحاولُ رنَّ جرس الجيرانِ،بروح الصبى الطائش،لكن في محاولتك الأخيرة وقع الأرنبُ بين يدي ذئبه العزيز بينما كان يسترق النظر الى وكرهِ،في تلك الآنية ستلعن الجيرانْ،حتى الجرسَ لن يمانع شتمه ،لكن ما إنْ تكبرٍ حتى تعود الى ماضيك متفاخراً بطيشكَ،خصوصا إنْ كُنتَ مشاركًا مع شلة من الأوغاد تتقاسمون هذه الذكرياتِ،أفضل ما في الذكريات طفولته،ومع منْ أمضيناَها .ليس عيبًا أنَ تعودَ لترى كمْ كنتَ بائسا،وطائشا في صغركْ،أنْ

تُمضي وقتا مع نفسك الصغيرة فتفرحَ على ما وصلتَ إليهِ.. فحثما ستحب ماضيك مهما كانَ قبيحاً تملأه الشوائبْ،فالماضي ليسَ سوى مقدمة الكتابِ ....

" مهما كانَ عليك أنْ تقسوا لا تنسى أنَّ كل ما ستقسوه سيعود من الماضي،سيكونُ الخريف الذي ستتذكرهَ وأنتَ تعيشُ الربيعْ،بالكاد ستقول ' كنتُ كذلك يوما' " .

" ليس كل من تعثر سقطْ،وليس كل من سقطْ قد تعثراً قبلاً،فإما أن تكونَ من الساقطينَ أو منَ المُكافحين..أنتَ من تختار من تكونْ "

" أحب ألمكَ،إن ما يتكبده المريض من شقاء ليس لأنه يحس بالألمِ،ولكنهُ لا يكادُ ينتزع الألم من بين مفاصله بنواحه الغريبْ،جربْ أنْ تحبَّ ألمكَ وتتقبله كطرفٍ منك،فأشياء التي نتقبلها نريدها أن تعيش فينا سرعان ما تهجرنا،ونعودَ لبعضنا غرباءاً...

" لكل ذكرى حلاوتها،حتى الخريفْ له ما يميزه،فالجو المتقلبْ يترك إنطباعاً مذهلا في النفوس،إنه كتلك الجنازة التي يعلمَ فيها الكل أنها مجرد مسرحية لكن جوها يبقى كما هو مليئاً بالحزنِ والبكاء.

-٣-

الرسـائل المـدفونـّة "

مـــن بــين ألاف الرســائل التـــي لا تصـــل لأصـــحابها،ولا أحـــد يعلـــم مصيرهـــا،ثلاث رســائل وُجــدَتْ مدفونـــة تحــت أصــحابها،بعد أن فقــدوا قـدرتهم علــى الحراكِ،ينتظـرون موعـدهم مـع القـدر ليسـحب روحهـمْ مـن على فراشِ،هذا واحدٌ من بين من يحبون كتابة الرسائل ...

"نـذبـة الـحـب..

سـألت نفســي، أتــراك ستقرأ،سـألتُ نفســي مِــراراً أتــراه سـيقرأ كــل هذاَ...متأكـدٌ أنـك لــن تفعـلْ،إن جيلـك يحــبُّ الــرسائل الفوريــة،ويكره هــذه المكتوبــة،لربما اعتــدتم الصــدمات الســريعة ،مهــلا ســأخبرك بشـــيء كنــتُ أتكـتم عليـه فــي أعماقيِ،ربمـا كنـتُ أنتظـر الصـدفة لـذلكْ،ليس بـالأمر المهـم ولكنــه مهم لي،إنــي أحـب أن أسافرعبرالرسـائل المكتوبـة تلـك التـي لـم تـأتيني منــذ زمنْ،لـمَ توقفـتَ عـن مراسـلتي هـل مللـتَ وأصــابك أرقُ منــازلتي، مـن هـذه المحادثــة الغريبــة يــا إبــن فــارسْ،أظن أن فــارق الجـدارْ بـدى مرعبـاً بعــض الشـــيء يــا جــاريِ،إني أحادثُــكَ طــويلاً فلســتُ أملــك غيركَ،لــدى فالجـذير بـك تَــسَلُّمُ رســائليِ،لن أعلـم ماحـلَّ بهـا،أتراكَ مزقتهـا ولكنــي أنقـب كل صـباح فـي مكـب النفايات لعلـي أجد رسـالة من تلك التـي أرسلتها ليخيب

ظنيّ،لكني أبداً لم اعثر ولا على واحدة أظن أن مصيرها كان غير أن تمزقَ بأصابعك المهترئة المتقفة،فلربما تدفأتَ بها أو رميتها في الحمامْ،لسْتُ على ما يرام يا جاري،فصعبٌ جداً أن تظل تكتُبُ دون ردْ،أيظنون لدينا مخزون وافر من المشاعر الحمقاءْ،لالا ...لا نملك غير القليل من الحماقات التي تدفعنا لنكتبَ طوال الوقتْ..لقد تأقلمتَ مع المجهول فياَ،أنا الذي كنتُ اراسلك طوال عطلة الصيفِ دون أن أكتبَ إسمي،لربما ظننتني فتاةً وبعد أن علمتَ أني جاركُ فقذتَ الرغبة في مواصلة اللعبة،ألسنا نحتاج الى مجهول يردّ على رسائلنا شيء مذهل وجميل،دون أن نعرفه حتى،جربْتُ أن أراسل فئران والقطْط منزلي المشؤوم،كتبتُ رسائلَ المضجرةً ورميتها في الشارع وبعد قليلْ جاء عمال النظافة فحملواُ كل رسائلي الى الحاوياتْ،لا أظنهم علموا ما وددت قولهُ ولكنّ تأكدتُ أن الإنسان لا يهتم للمكتوب،بقدر يهتم لمظهر ذلك إنسان الغبي...كل مرة إراسلك فيها يعترينيي الفضول،فأنتَ من كيانٍ آخر،من تقافة أخرى صاحب لغة أجنبية،فكيف تراكَ ستفهم رسائلي،حتى بعد أن قلتَ أننا نتشارك الأصل والفصول الغربيةً ؛لم أفهم ما قصدتَ إلا حينما كتبتَ بلهجتي،أتعودت على الأمرأم ماذا؟ لقد تعبتُ من الكتابة بضمير لهوُ أليسَ ممكناً أن تصل إليك كل رسائلي دون أن تقع في يدِ جاري العزيز ذلك الذي يفوقُكِ في السنّ،لم يردعني شيء غير خوفي من أن أكون مشكلتك العويصة،فحتى وإن لم تَرُقْ لي هذه الخدعة ولكنها مجدية في عدم ضياع الحيلة،لم أعدْ أتحمل مناداتك بجاري،بل سأناديك

بابنـــة الجيرانْ،سَــمِعْتُ أن خطبتــكِ غـــداً ...تهانيناً .تمنيتُ لـــو أســـتطيع المشــاركة،ولكني لا أحــب الأعراسْ،ســمعتهم يقولــون أن حظــك رائــع فقــد سقط ثـريٌّ فـي حبـّكِ،فماذا قد يفعل فقيرٌ مثلـيٍ؟ هل ينتحـرْ،لا أدري أستطيع احتمــال هــذا الألــم رغــمَ أنـــي كنــتُ أســترق النظــراتَ مــن بعيــد دون أن أكلمكْ،أشعر بفـراغٍ خـانقٍ يقتـلُ كـل مشـاعري واحـداً تلـو الاخرْ،إنـه يـرغمهم علــى صــعود الــى المنصــة ليعــدموا أنفســهم بأنفســهمْ،ذكيٌّ جـداً ..أجرموا فــي حــق أنفســهمْ،لا لا هنالــك مــن دفعهــم لــذلكْ،وهو المجــرم الليلــةْ لزلتُ أذْكــرُ حينمـا كنـتُ أكتـبُ رسـائل الحـبِّ لكِ،أشـعاراً وبعـض الثراهـاتِ...وفي اليـوم التــالي أعيـد الــردَّ علــى نفســيٍ لأبــتهج بســاعي البريـد يقـف أمــاميٍ حــاملا ضــرفانٍ فقــال مــرة " أيسـكنُ معـكَ شـخصٌ تراسـلهُ عـن طريـق البريـدْ؟ لأن العنـــوان نفســـه.....فأجبتهُ ...كنـــتُ أراســـلُ نَـــفسي..فغاذر فـــي حيــرة مــن نفســـه..أليس مـــن يصـــل الـــى هـــذه المرحلـــة المتقدمـــة مـــن الجنـــونِ يعتبـــرُ أنانيـاً،ليس بعدْ فهنالـك مرحلـة تجعـل إنسـان يقـف أمـام نفسـه طويلاً،ولليـوم لا أحـد وصـل إليهـا غيـر القـاطن فـي السـفحِ..أليس مـن الحماقـة أن ننتظـر ردَّ الغائبين،إنــه لمــن يــزعج الإنتظارْ،ولســتُ ممــن يتلهــفُ لصــدمة مـــا...كل صــدمة تنتــزع مــن الــنفس شــيئاً. بهجتها،إصرارها،دهشــتها. ..فكلمــا كثــرتْ الصــدماتْ يصــبح الأمــر مألوفًا،بــل أكثــر مــن هــذا نعجــز عــن بــدل شــعور يــروق للحظة،أصــبحنا عقيمــينْ لا نلـــدُ غيــر الصــمتِ الــلادعِ كــل مــرة..لا تســأل أحـــدهم عــن صــمتهِ،فخلف الســكونِ لَـغَـــمٌ مميتْ.فــأكثر الأقــدامِ خفــةً تسـقطُ ببراعَــة اللّـِسان السـليطِ فــي فـخِّ هـذا اللغـمِ المـوحشْ،ليسَ للمـرء غيـر

نفســه حيــثُ يــرتكنُ،ولا مكــانَ آخــرْ يتحمــل كــل مشــاقه،ظننتكِ جنتــيِ حيــثُ تقبــع ســعادتي ،فارتطمــت بجحيمــي ينــاذيني مــن خلــف الجــدارِ قــائلاً "وراء الســرابِ عــذابْ ووراء الحــبّ ألــفَ ذئــبٍ وحيلــةٍ....في النهايــة ســينتهي بهــذه الرســالة كبــاقي الرســائل التــي أجهــل مصــيرها،أتمنــى لــو أجــدها فــي النفايــاتِ لكــي أتعــرف علــى هــذا الأحمــق فيآ..فكلمــا مــرتْ لحظــة يتفــوق إنســان عــنْ ماضــيهِ،وأنــا بشــدة أريــد رؤيــة ماضــيِ الــذي بــدوثُ فيــه أحمقًــا،إنهــا نذبــة الحــبْ،جرحُ فــي كيــانٍ ســافلْ،أراه يمتطــي ســفحه القــديم بــنفس الأقْــدام المهترئة،بنَــفس الشــغفِ المضــجرِ،ونفس الــروح المتطبعــة بالمرضِ،فمــا يقــع فــي الــروحِ أقســى مــا نــراه فــي الجســدْ.لدى فَلَــكِ أن تــريْ جســدي الهزيــل مــع هــذه الأعْــينِ المنتفخــة المليئــة بالهــراء،ومــا يخْــفى وراءهــا مــن روحٍ تمطــرٍ نواحــاً ويأســاً مُعذباً،كُــم مــن ســجن أهدمــه سجــنَاءهُ،لعنفهمْ وقوتهمْ،فحينمــا يكــون الســجن مــن الغــزل والصــوفْ يَــسهل علــى الســجناء الهــرب مــن بــين أعضــاءه..لم يعــدْ ســجني قــادراً علــى إيــواء المزيــد مــن الثقوبْ،المزيــد مــن الســجناء،حتما النهايــة فــي النفاياتْ..سأظــل أحبــك مــن بعيــد فالحــب ينقضــي حينمــا تتشــابك الأجســادْ ويتقــوى بإنفصالهــا..سأظل مُتَــيّمًا بتفاصــيلكْ،باللحظاتِ التــي تخَيّلتُــكِ فيهــا ولــم أرَكْ،لســتُ أدري هــل أكتُــبُ رســالةً أم يومياتْ،فالواضــحُ أن لــديَّ الكــثير لقولــهِ لــكٍ،في بعْــض أحيــانِ ينبغــي تقييــد القلــم بلجــامٍ كالحصَــانِ الــذي يحتــاج لتــرويضِ لأن روحــه طــائشة..شَعَرتُ بــكِ فــي روحــي قبــل قلبيِ،فــإنتزاع الــروح أفضــل مــن بلــوغ القلبْ....هــاهي ذي روحــي علــى الشــرفة تــراكِ ترقصــين مــع ذلــك

العجوز الثري،نسيتُ أن أنثى لتتخلى عن كل شيء لـتعيش مرفهةً،فالذي يُحْرمُ وهو صغير يستحيل أن تقنِعه بالقناعة وهو كبير...إنهم شلة من الظرفاء حينما يبدأون في تسميم أفكارنا بحكمتهم العفنة،ستخبركَ أنها لا تصلح للحبِّ،ولكنها في الحقيقة تكادُ تخفي أنها وجدت البديلْ،في حال رأيتهاَ تحاولُ إنفلاتَ منكَ لا تركعْ متسولاً بل إعْطِها سبباً ملائما لتبررَ رحيلها بكل براعة،فالذي لا يبقى بإرادته يفسد المكان بتعطشه لمكانٍ أفضلْ..لربما كانَ أفضل لهذه الرسائل ان تغتشي في القَلبِ بدل أنْ تُلعنَ في العلنِ،فليس جيداً أنْ نبْقى نحترق بذكرياتٍ قد مات أصحابها في قلوبنا لأنه لن يخلف غير الرمادِ،سيبقى إنسان يتعذب لوقتٍ يجد فيه نفسه مرغما على إيجاد أسباب أخرى تجعله شقياً،فالحياة ليست بتلك السهولة التي نتخيل إما أن تواجهها كعدو شرسٍ فتعيشَ نبيلاً في نفسك،أو أن تستسلمَ لها فتعيشَ تحت إبطها مع منْ يحبون القعرَ السحيقْ..إننا لسناَ غير أولائك المَنْسيون الذين ينامون تحت أي شجرة يرونها تصلح لإرتواءهِمْ،نشاهد من بعيد مجرمي القرنِ ينالون من الحشد بمواعظهم وحكمتهم البائسة كأنهم يريدون إبتداع طريق يودي بالسافلين الى الجنة...المهم سيبقى إنسانُ غبياً لوقتٍ يشعر فيه أنه عليه البقاء كذلك كيْ لا يخسرَ ،وحينما سيخسر سيضطر لألا يعود غبيا كما كانْ،سيتذاكى بغباءهُ،لينهضَ بغباءٍ متقدمْ وأشدُ تعقيداً مما كان عليه..

لن يتسِعَ الوقتُ لتبريرٍ ولا لفرصٍ جديدة،ولكنكَ مجبرٌ على إبداءِ شيء من القناعة للأوضاع التي تعيشها،فلكي ينموا القمحُ عليك أنْ تزرعَ

الحبوبْ،كذلك هي النفوس النبيلة لنْ تولد وسط كومة من الجبناءِ،ولا بين براثن الذئابْ،كل مخلوقٍ مُمْتنٌّ بشيء ما للبيئة التي وُجدَ فيها..

مجْرمُوا الَقرْن "

لستُ على ما يرام يا صديقي،فأنا غريبٌ في وطني،كلانا غريبٌ عن الآخر،كأن يعيش قِردٌ في وكرٍ ذئبٍ،أو نعجة تنام وهي مقلوبة على السقف كخفاشٍ معتمْ.لستُ أعلم ما أوصلنا الى هذا الحال،لكني أراهم كل يوم يُجرمُون دون وعيٍ،دون أن ترتَعش هياكلهم الصغيرة المسمومة. حتى أني تساءلتُ عن سلالتهم وأصلهم الذي ينحدرون منهُ،هؤلاء هم القردة وليس أولائك الإنسانيونْ،سرعان ما أقنعني صيتهُمْ وأنانيتهم المؤزيةْ،إنهم منبوذون من أنفسهمْ،ليسوا فقط يفسدون الجوْ بل هم من يُسْقِطُ قشورَ الموز كمقلبٍ يوقع إنسان هذا الوقتْ...ستبتسمُ وسترى أني على حقْ،ستتساءل لمَ وودتُ أن أكتُبَ كل هذاَ؟ فإلى متى سننتظر من الغارقِ إنقاذ نفسهِ،إن كل إنسان ينتظر من آخر أن يباذرْ،هؤلاء المعتمونْ لا يريدون إشعالَ المصابيح،فكل منهم يُطالبُ الآخر بالنهوضِ من سريرهِ العزيزْ ليَتفَقَّدَ مقبسَ الكهرباءْ،يصعبُ العثورُ على المحترفِ في كومة من المهرجينْ،كما يستحيل إيجاذَ مُباذرٍ في قلبٍ تفَّاحة عفنة،تَشكوا أنانيةً ملعونةً،فالغريبُ أن من نراهم مسْتعدين لإيقاظِ

الفوضىْ أول من يعتكفونَ إشعال المصابيحْ،هؤلاء جيذون في إحراق مصابيح الآخير لتظل مصابيحهم مشتعلة طوال الوقتْ..يبدو أن رسالتي بدأت تؤرقكْ،يا ترى هل أنتَ من هؤلاء المتغطرسينْ،لا اظنْ..فأنا أجيذ إنتقاء أصدقائي بكل عناية،سألتني يومًا " أراكَ تنتقي الصالحَ وتتركُ الطالحَ حتى في العلاقاتْ،وطعامكُ لا تبالي بما قديكونْ مع أن الصالح لكُ هو الطعام والعلاقاتُ راحلة " فأجبتكَ حينها،أن وجع الطعامِ يذهب سريعاً مع العلاَجِ أما وجع الخيانة الأصدقاء فتحفر في أعماق القلبِ ....ظننتكَ تُنْصِتُ ولكنه من المحتمل أن النوم قد غلبك لا عليكَ فكُلنا نتحدثُ ونحْن نيامْ،ولربما نَحن الآن كلنا في غيبوبة،نتشاركُ الحلُمَ نفسه والكابوس ذاتهُ،ستسْألني من هُمْ مُجرِموا القرنْ؛أي جُرمٍ فضيع هذا الذي إرْتكبوهُ؟ ستراهُم بريئين في لحظة ما،ولكنك ستغير رأيكَ حينما تنجبُ البراءة من أحشاءها وحشا يقضي على القيم التي ظَلتِ البَراءة تُحْيِيها وتعظمها،أليستْ الخطيئة أن نلد من يفوقنا في التوحش بذل الرقي والفضيلة،الكل يريد إنْجاب النبيل من سَلالتهِ،سرعانَ ما ينجبون عكس ما يريدُونَ ،كل شيء متوقف على النوايا،وكثيراً ما تَخيبُ بسبب التسرعُ والحكمِ الساذجْ،مجرموا القرنْ ما هم إلا بقايا الحداثة المزيفة،إنهم حطامُ العصرنة الذين يريدون جعل الشمس تُشْرق من المَغْربِ فقط لأنهم منزعجون،تراهم يرتدون ملابسَ بالية وممزقةً،وفي أقدامهم أحذية لذوي الثراءِ،فتبْقى أفكارهم حبيسة الماضي وأجسَادهم مُرتَميَة نحو المُستقبلْ،يوما ما سيسقط الستار وتنخلع نكتتهم الكوميدية،لن يبقى على

المسرحِ سوى من يجيد البكاءُ وكل من إعتلاهُ بضَعفه سيسقطهُ بقوته ليرتكن في الهامشِ كمتسولٍ لا يبرع في تجميل الكلامِ.....أتعلُمُ لما أخبرك بكل هذا،لأني عَلمتُ أن زوجتك ستنجبُ طفلا عمَّ قريبًا،لدى كان عليَّ تنبيهكَ لكي لا تخطئ فتنجب عكس ما تريدْ،لا تتركُ أحداً يربي أطفالكْ،لأنهم سيلقنونهم ما يريدونْ،سيغرسون فيهم الأمراضِ بدعوى القرابة،فلا أحد يريد من هو أفضل منهُ،إجعلهم يدركون أن خلق جيل من العظماء ليس بجعلهم عبيداً لكل أحدْ،ولا بولادتهم داخل القطيع،فالحشد لا يلد غير المَقهورين،ذوي الشخوص المشْحونة بالسلبياتْ،سألتني مرةً متى تبدِعْ ؟ أراكَ تنوحُ بكلامك وأنتَ قلبُالصمتُ داخل الحشدْ؛إني أبْدعُ في صَمتيخارج الحشدِ؛وفي ذاخلهِ أنبتُ حماقاتي ونكَتي،فالوراء الحشدِ توجد الفضيلة حيثُ يَنْبُتُ الإبداعُ فيتقوى بفُرَادَتِهِ،فإن عاش في المستنقع عليهِ أن يحيا بقذارتهِ،ومن يحيا في العزلة يجدُ فضيلتهُ وعظمتهُ،فلا تخطئ في الظن أن ثمن العزلة قَليلْ،بل أصعبُ شيء أن تضع نفسك في العليةِ فلا يبقى عليك سوى البقاء فيها،دون أن تطأ قدماك أرضِ وإلا ستتعفنْ من أول تانية تلمس تُرْبَتَهاْ،إن العزلة ذاء ودواء في نفس الوقتْ،من إعتاد بؤسها حَفِلَ بحنانها،ومن دخلها كغريبْ سيخرج منها كأغرَبْ،بل سيكره اليوم الذي قرر إعْتزال فيه ليعود كذئب صام لومين خارج قطيعه فعادَ مشتاقا لسرقة بَقايا الوليمة من أصْحابه،صعبٌ جداً إرضاءُ الأقرباءْ،وسهلٌ إقناع الغرباءْ بهذا الكلامِ،لدى لا أنتظر منكَ الرضى يا صديقي فأنتَ إجتماعيٌّ جدًا ستكره من يلعنُ قطيعكَ،وستدُسَّ

لي بعضاً من الكراهية في جيب سترتك الصوفية فلا تخرجه سوى في الشتاء حيثُ أكونُ أمام مدفأتي أرتعشُ من نفسي القديمة،إنْ أقنعتَ سارقًا بالكف عن سرقتهِ فهل سيرضى؟ أبداً سينسيكَ الأمر لتجذ نفسك ضحيته الأولى..فقبل أنْ تَرْدَع لِصاً جربْ أن تُقنِع نفْسك بأن الطبَاع المسمومة يستحيل معالجتها،لقد تعفن فيها الفساد حتى بلغ قمة السحب؛فما عادت تمطر غير العفنْ،مثيرون للشفقة هؤلاء الذين نراهم يتبَرأونَ من صفاتهم القبيحة،إنَّ كلامهم المعسول يثير الشهية في النفوس المنهارة،ليبعث في أجواءها عبقًا من الياسمين الناعم حتى يكاد يثمل الروحَ فيغرقها في بقايا أوهام مفجعة،فليس المثير هو الوقوع في فخهم هذا ولكنه فخٌ مفيد بما فيه من سموم لادعة،إننا نتعلم كيف نخرج الثعبان من غشاءه دُون أن يلدغَنا،كذلك البشر إرمِ لهم الطُعْمَ وإنتظر حتى يسقط أحدهم في العشْ،فمن يسقطُ أولا هو أول من يصلحُ لهذه السلالة...لقد أجرمنا في حق أنفسنا منذ وطأتْ أقدامهم أرضنا وبنكتة الكرمُ تركناهم يفسدون محصولناَ،إنهم ظرفاء للغاية ماداموا ضيوفًا.

ماذاَ كانوا يفعلون حينما كنتَ وحيداً تتألمْ؟ كُنتَ تعارك جانبك المظلم المليئ بالقتامة،بالقلق وإحباطِ،بكل ما يفسد مزاجكْ ! هل وجدتهم بجانبكْ؟

أبداً.. هؤلاء المجرمونْ دوي الشهامة المؤقتة ليسوا دائمينْ ولا يصاحبون المرضى إنها معتادون على الوقوف خلف الأصحاء والأقوياء كظِلّهِمْ،لن تجد أحداً ولن يلتفت إليك أحدْ،أنا من يخبرك بهذا ولا أحد آخر مهتم بالأمر غيري،ستتصل في المرة أولى ..لن يجيبَ أحد....ستعاود إتصالْ

سيجيبك الرد الآلي لتذهب حماستك نحو القاعِ بعدما ظننتَ من تودُّ إعترافَ لهُ غائبا..ستخبر نفسك أنه لم يرى إتصالكْ،وستعيد إتصال...سيبقى يرنْ حتى يملْ...لا يزال صديقنا تائها لمْ يرى هاتفه يرنْ لربما قد وضعه على نمط الصامتْ...سيعيد إتصال للمرة الرابعة...جملة خانقة " الهاتف مطفئ حاليا" ..أليسَ حقيراً أن يظل هؤلاء الصامتونَ المصلحيون يتلاعبون بأحجارنا وبلكادِ لا يزيدوننا سوى إحباطاً،لِم لا نغلق السماعة،نغلق أذاننا عند أول كلمة يلقونها إلينا،لنكف عن هذا العبث المحرجْ،دعكَ منهمْ،فقواعد القوةأنْ تبتعد عن كل منْ قد يجعلكَ تعود للخلفِ مهما كانت درجة قربه إليكْ.فاليومُ القريبْ هو العدوا والبعيدْ سيغدوا كذلكْ فيما بعدْ،إن غباءنا دائما ما يجرنا الى إبتداع مبرراتٍ سخيفة لكي لا نقع في كره بعض المحَبَّبِينَ إلينا،نخافُ أن نخسرهم لأنهم كل شيء في حياتنا لدى نظطر لبدل المستطاع لتغيير الواقعِ،لإقناع أنفسنا أنهم بريئونَ، ولبراءتهم الودودةِ تراهم يفعلون نفس الشيء ليس لنا بل لأشخاص غيرنا لا يهتم ولو قليلا بهمْ،فهكذا هو إنسانْ يهتم بمنْ لا يهتمْ بهِ .ستتفاجأ حينما تراني عنونتُ جموحي بمجرمي القرنِ،إنهم أولائك السافلينْ الذين يعيشون في القاِع فيتوددون لناَ للعيش معهم فيهِ،ليسَ حباً بلٍ حسداً وكراهية،إنهُ ذلك الصديق المخلص الذي لن يرغبَ أن يراك في القمة،وسيفعل أي شيء ليراكَ تلتمس أعذار مثلهُ في البقاء في القاعِ،إنهم أولائك الجيران الذين يفسدون محاصيل جيرانهم حسداً لأنهم أيتامْ لا محصول لديهمْ،إنها تلك الفتاة القبيحة التي تغار من صديقتها فتضع لها

الطعامِ ما يُمْرضهاَ،إنه الأستاذ الذي يُطعمُ طلابهُ الصوفَ بدل الخضرْ،إنه الطبيب الذي يلتمسُ مرضاً ليسرق عرقَ الناسِ وأثعابهمْ،إنها الفتاةُ الطماعة التي لا تكتفِ بواحدْ فتضاجعُ القطيع بأكملهِ،إنها العائلة التي تصنعُ الأمواتَ دوي القلوب الحجرية،إنهم أصدقاء الذين يجرون نحو الأسوء دائماً.....إنه قرنٌ من المجرمينْ،كثير منا يغفل حقيقة أننا في كل لحظة نلتقي بهؤلاء،لكن بسذاجة مرضية حقاً،سرعانَ ما يسقط حجابهمْ ليظهر للعميانَ ما كان مستوراً،بل مخفياً...إعتبرها نصيحة أو دعوة نجاة :

" لا تصاحبْ من تراهُ يحبُّ إغراقك ولو بالضحكِ،فهذا الذي يضحكك اليومُ غداً سيبكيكَ ويرهقكَ،لترى أن الخدعة قد إنطلت عليكَ وتلك التي ظننتها نكتة كانَتِ الحقيقة" .

" لا تعطِ قلبكَ لأحدْ،فاليومُ تضعهُ في جسدٍ آخرْ،وغداً تجدهُ في السوقِ بأبخصِ للأثمانِ "

" البراءةُ خدعةٌ إياك وتصديقها،حتى تلك القطة الصغيرة حينما تفركُ على بطنها تراها تترنحُ بسعادةٍ مبهرة وعيونها تبرقُ من الجمال،فحينما تنتهي تكشرُ عنمخالبها مستعدةً لإعادةَ الثأر...فالكلُ يريد أن يبدوا بريئاً في نظر الآخرينْ،ربما مقبولا إجتماعياً إنه يحس بالفخر لذلكْ،ولكنه في الحقيقة يمارس مثالية مقرفة مليئة بالنفَاقِ،إنه من مَرْضَى المثالية المزمنة،تراهُ كل لحظة يسعى لتصرف، ليجذب الأبصارَ الساذجة،حقًا

مـريضٌ هـذا الشـخصْ إنـه مثعـبٌ مـن نفسـه لـدى يبحـثُ عـن النجـاة فـي شخص آخر "..

" عـشْ بأمـلٍ كأنـكَ سـتلتقي بمـنْ تحلـمُ بملاقاتهمْ،لأنَّـكَ فـي كـل يـومٍ سـتخلقُ بهجـةً تجعـل مـن يومـكَ لاُ ينسـى ولـو كـان هـذا الأمـلُ وهمًـا كاذباً،فـالفوز بشـيء بعـد خسـارتهِ يبعـثُ الـى السـعادة،فليس شـرطاً أن تـأتي السـعادة بالفعـلِ في قالبٍ واقعيٍ،يكفي أن تكون لديك مخيلة الفنانِ الشغوفِ الى الفنْ ".

إنَّ أفضـع شـعور أن لا تصـل رسـائلك للأيـدي المقصـودة،كأن تكتـب رسـالة الـى حبيبتـك لتتـذمر لهـا عـن اشـتياقك وعـن إبطـال رغبتـك فـي إنفصـال عنها،فقـد ظللـتْ تنتظـر الـردَّ منهـا دون أي فائـدة،تظنها لا ترغـب فـي رؤيـاك ولا مراسلتك،لكن فـي الحقيقـة لـمْ تسـتلم ولـو رسـالة منكْ،وبعـد فتـرة تجـدها متزوجـةً مـن أبلـه فتسـألها " لِـمَ لـمْ تـردي علـى رسـائلي...فتجيبك أي رسـائل ،لـم تصـلني اي رسـائل،فتكذبها وتكـذبكْ،وتبقى المشـاحناتِ تـرقص علـى نقطـة ضـياع الرسـائلْ.هي فقـط رسـائل منسـية،لدى قبـل أن ترسـل رسـالة لأحـد تأكـدْ مـن طباعتهـا و إرسـالها مـع اشـخاص كثرْ،فلـو لـمْ تصـل عـن طريق واحد ستصل عنْ طريق الآخرْ.

-٤-

السَّــحَابُ العَـابِـرُ

**

النـزّيــل :

إننا جميعا نزلاء في هذا العالم !ولا واحد أبديٌّ حتى النهاية.!

**

وددتُ لـو أمتطـي صـهوة أمواج،حـيث نبحـرُ سـويا الـى أعمـاق،دون أن أتَذَكّـرَ مـا أكونـهُ،فأجلس منتحبا علـى شـاطئي ألْـقي أبياتّـا مـن الشـعر لمـا قـد وجـدت نفسـي عليهِ.فصَـفَعَتْ إحـدى أمـواج خـدَّ الصـخور فطـرق أحـدهم بـابي قائلا: إنك مجرد نزيلْ!

إبتسـم الشـاطئ والغرقـى فاقـدوا أنفسـهم حينـاً ،والناجـذون يناشـذون غرقـاهم حيناً،وكـل شـاهدٍ بـادٍ للـودِ ولا الـودُّ راَضيٌّ،جلسـتُ فـي القـاع ألقـي أنفاسـي الـى أسـماك مثرثراً،الـى وقـت يبـدو فيـه الغرقـى قـد اسـتنفذوا جرعـات المقاومـة ،وإنتهـى طيشـهم فـي منازلـة الأمواج،فنزلـوا بمهـل فـائقٍ علـى أرضـي، حيـث الكـل تحـت الحكـم قاضيٌّ،أتمشـى بيـنهم والجثـةُ ترمـي نفسـهاَ ولا أحـد راَفضٌ،تلاقـي فـي المصـير دعابـة ،فتأسـر بـاقي الأرواح ومـا بقـيِ

في روحي ما يأسرها،لتمطر تنحباً على من أوجدها،وللحظة وقف النزيل الفان قائلا:

هل هذه كتيبتي؟ فصاح الكل ساخراً،كثيبتك في الطبقة الثانية تحتنا !

فصاح خجلا: عفواً فقد قاطعتُ حشركم !

أنا النزيل بدون رَقمٍ ،أعلم مدى سخْريتكُمْ مني،ولكنني أجهل أي رقم أحمل،فحتى الآخرون جميعهم يجهلون ما أجهله،فنحن موجودون بأرقام ولو استطاع أي أحد من هؤلاء الحمقى القاطنيِن على وجْه أرض،وَضْعِ رقم له لما تمَاديْنا في البَحث عن من سيموت أولا،حتى أننا لنستطيع تفادي ذاك الحزن المميت عن باقي الجثةِ الحية،لربما يوقظني حفيدي من ألف نومةٍ ليسألني ،عن رقمه كنزيل في هذا العالم ،فبماذا سأجيبه يا عالم! وقد يحضر المحاسب،ليجدني أنا نفسي لا أملك تذكرة ولا أَحمل مالا في محفظتي ،ليسخر باقي الأحياء من جُثتي رامياً إيَايَ من على متْنِ القِطَارِ،لأفوّتَ عليَّ فرْحَةَ الشّواءِ،وكوبا من الخمْر الجيّدِ،فالأروع على إطلاق أن تستعد جيداً قبل أن تغادر نُزُلُك الفَانِي،بِشَهيَّة مفْتوُحَة لإلتِهَام الجحيم،إنها برُودة النيِرَان السَّاحِقَة حَيث يعْجز كل لهَب عن المماطلة لينتهي متفسخاً في أجواء بكل ما تحمله تلك الجثة الفانية من بلاءْ.

لقد قالها أحد العَجائز وقد تطفحت فيه كل أمراض وسكنته كل الدعاوي ،فلم يتبقى فيه إلا فَمٌ يسحْبُ به الهواء:" نَحن آفة من النزلاء حيث نقبع بين أتربة الأرض،وأهواء السماء،نحن من يرى في الذئاب مكراً فينتشي

بـه الخـلاص راجيـاً ،الخلـود بتهـذيب لائـق قـد أذاقـه المـرَّمَرارَةً .فكيـف لا يـأتي فـي النهايـة مـن ينهـي فَـصائل أجيال،بخطـأ صـغير،يظنه عـادةً جَيِّدَةً فـي يومياتـهِ.لا أظُـنه أخفـق فـي أن يحـزِرَ مـا نحـن عليه،بَعدمَـا خَفَّـتْ عظَامُـه وتراخت لحوُمهُ وشاخ شعْره.

لنكمـل السـخرية،بلباقة كوميـديا هـذا العصر،وبفضفضـة المتطفلـين وراء الشـبابيك المغطـاة ،وبخشخشـة أطفالنـا المرهقين،حيـت الكـل يصـبوا نحـو بزْكتـه الخاصـة،منفلتين مـن قلـب الشقاء،ليصـدموا بـه قـد سـبقهم الـى البحيرة يتنَـاسوْنَ أنهـم نزلاء،ومـا النزيـلْ إلا مـن أبدعتـه فكـرة السـحاب العابر،إنه المبعوث الأزلي لحياة أبديةٍ..

فـي ذاك الشـاطئ المقصـود،وفي نفـس الليلـة الباكية،ومسـرحية أخـرى مـن نـوع الموحش،حيـث فقـذت كـل الوحـوش رُعْبَـها المألوف،وإكتسـبت لطافـةً بائسـةً مكسـوةً بِفِـراءِ الثَّعـالبِ،تلك الآناقـة المزيفـة التـي أَبَـتْ العُقْـمَ مـن كَـبِد كُـل نزيل فوجدنا ضحية قد إنْسَلَّتْ من بين الشباكِ،تغتمرُ في روحها المبتهجـةِ لتعجـب الصـيادْ ويـا للأسـف،كان الصـياد فتـاةْ فخسـرتْ الضـحية المجازفـة ،وأبطـل مفعولهـا تحـت الشـباكِ.كلها ليـالي موحشـة يـا صـديقي،قالتها الفاتنـة بحـزن شـديدْ مـع خربشـة مشكوك فيها علـى ملامحها الحسـناء. وأثنـاء ثرثـرة موجعـة لبـاقي مـن ألفـوا متعَـة الحيـاة،وقف سـكيرٌ أربعينـي يصـرخ،" أهذا كـل شـيء؟ هـل هاتـه هـي النهايـة المعهودة؟ ضـحك الحاشـرون ونـاذو الجـلاذ " تَـعالَ هـذا واحدْ،جِلْـذُهُ القاسـي لـم يثعـب مـن الشقاء فـذع سـوطك العـادلِ يكـرم ظهره،فدائما مـا نَجِـدُ واحداً مـن الشِّلَّـةِ قـد

إعتادوا انحناء لدرجة ما عادو قادرين على الوقوف مستقيمين.فتطلع السكير نحو الجلاذ قائلا: دعك منِي،فجلدي أصلب من الفولاذ يا عزيزي الجلاذ!

إبتسم باقي النزلاء متطلعين لحشر الفتى السكير كلهم أماني في رؤية ذاك المنظر المُريعِ،ولكن الجلاذ ألغى الطلبية،وأرجع السكير لنهاية الحفلة وبدأ الحفلة بأولائك الجماهير التعيسة الفاقذة لذوق الفني ،يقول السكير: أبداً لا معنى للقوة دون صبر،إن صلابتي هي نفسها قوتي ولا معنى لقوتي ذون إرادة.الكل يصرخ ألماً،والسكير يلهو في شيء من الكوميديا،فراح للجلاد قائلا:

هلا عاقبتني الآن،فلا وقت لديَّ لأنتظر كل هذا الكم من الحمقى الهالكين ،فورائي جحيماً ينتظر مني رجفة من نبيذي الرخيص.

إبتسم الجلاذ في تعجب قائلا: يا له من أضحية غبية ،فأمسكه من عنقه والسكير يتمايل بين يدي الجلاذ،كخيط على وشك إنقطاع،فرفع الجلاذ سيفه محاولا قطع رقبة صديقنا السكير،وما أن إقترب من عنقه حتى رفع السكير رأسه مقاطعا الحفلة قائلا: أوه، مهلاً لا ترفع سيفك بعيداً،اصلا ماذا فعلتُ لتفعل بي هكذا !

إنتهت الحفلة ونجى السكير بفضل تمالته،وفطنته،وباقي من كانوا معه حشروا في بطن أرض متمتعين بسؤال : ماذا فعلنا ؟

يقولون لتعيش سعيداً،عليك أولا أنْ تنسى ما تكونه،أن تعيش متناسياً أنك نزيلْ

كنتُ لأنسى أصلي،وكل فصولي الماضية،كنتُ لأتناسى كل تلك الجلذات التي خطَّت ظهري برسوماتها التافهة،كنتُ لأكون غيْريِ لَولا هذا القيد المُريعْ.

أتعلم يا صاحبي عن ماذا أتحدث الآن ؟

عن المرض،كل تلك التفاصيل،التي يراها القلة،وهي نفسها السُّمومٌ تعيش في الذاكرة،لتتغدى بأماننا وطموحاتنا،فتأسرِ كل نزيلْ،فلا تترك فيه إلا ما بقي منها .رمادٌ وخلاصة شواءٍ..إن الذي يقطع تذكِرةً الى الجحيم أبداً لا يمكنه أن يعود دون أنْ يحْملَ في خُفَّيْه بعض الشرارات حيت تقبع باقي السمومِ .فسَواءٌ أرهِقَتْ أرواحهم من فرطِ ثِقْلِها أم أزْهِقَتْ ،فليظلوا حاملينها ،راغبين في إذاقتنا إياها .فلينتبه من يملِك عقْلا ،وليحتَرس من له قلباً..

في يوم كهذا،نفس النهار ،ونفس الغيوم ،ونفس أشخاص حتى العصافير نفسها تلك التي تأتي الى نافذتي لتطرق زجاجي كلما جاءها النسيم محملا بروح الجمال،بفن خصب يطرق الأبواب مسرة تعتلي أقباب السماءِ.بفرحة الربيع القانط في كل القلوب،محملا بأبيات من القصيد الساحر حيث تقف أرواح شاهدة لبراعة كل هذا الفن. فتوقفت فراشة ناعمة كادت تسرق قطعة من النسيم الربيعي ،فتمايلت يمينا تِلوَى اليسارِ،تراقص السنابل الخضراء اليانعة وتحاكي طيور السنونو البارعة،برقص خَلابٍ وقوامٍ فَذٍّ يأسِر أنظارَ،فوقفتُ أخط الجو بفنها،وكلها نشاطٌ كأنها نُزُلُ أرْواحٍ مشاكسةٍ تنتظر فرصتها لتعيش

اللحظة.فجاءتني في لمحٍ كسنونو قابع في أرواح السماء فأمطرت بها ضحكا يتلو أرزاقُ،فقالت : ماذا يضحك يا هذا ؟ وهل من الرجولة أن تتطفل على فتاة تراقص الطبيعة ؟ فقلت بشيء من إستسلام،مختلط بسحر البياضِ:

إن فيك سحراً قد دوى صيته ،كفراشة خطت الأجواء برقصها الآخاذُ،فأي كان ليقع في فخ ذهاءكِ وإن كان في علا الذكاء يتربعُ.

إبتسمت الفراشة وهزت جناحيها خشيةً،أن يبقى الصيت قابعا وراءها ليغدو لتابع مسرحاً،وله منها مسرةٌ.فقالت : إن في أصوات دعابَةً،تخدعَ أبصار حينما تُروَى كُلُّ أسماعِ،فلا تنخدع في رقصي فصوتي فاصح كداحُ،يرعب أبيات الشعر،ويبكي كل القوافل،فأرجوك عني ،لا أبغي من نزيلٍ غيري أن يعاني !

فقلت مشاهدا: أرقصك عقابٌ أم أفسوحة صباحٌ؟

فقالت الفراشة: لا يستوي الصباح مع العقاب مهما بدى،فكما بان لك في العقاب أفسوحة ينفثها رقصي ،ففي مساء يجيء القاسيِ و البائسِ.

وراحت الفراشة تكمل رقصها،وكل من أوجدهم الربيع صاروا بعدها ..

إن من يعتلي فهماً صحيحًا ليجد لنفسه مكاناً أصَحْ،وما المكان الذي تروى فيه الذات إلا النُزُلُ نفسه حيت نقبع جميعاً،هو خلاصنا نحو أبدية زائفة.حيت تدفعكم الى الهاوية والهاوية نفسها تعلي من شأنكم،فأفضل ما قيل أن أكثر النزلاء صلاحاً من فقدوا نزلهم أولاً،أولائك الماكتون على الشرفة حيت صاروا للماضي ذاكرة.

إن كل مخلوق على وجه الأرض ولد لكي يفنى،فتلك الشجرة التي كانت بذرة تنمو مع نمو الحياة،لتعود محبطة نحو إنحطاط بلا أوراق تكسو جسدَها الخشبي .بحشمة عارية تفقذها طباعها المتعففة.فكيف لا نكون نزلاء على هذه الأرض؟

لربما تقع هاته الفكرة السافلة فوق بعض العقول المثالية لتفقذها نشاطها المعتاد،فتشكل عقدة مقلقة في الحلق ،لا تنفكُّ إلا مع قبولها كَواقع ماديٍّ،فالمرءُ ما يحتاج لقنينة من العسل الطريّ مع رغيف من الجبن الطازج وأسرة صغيرة وفكرة نبيلة. ليخرج من طور التفكير مغاذرا إياه. مستعداً لإنتزاع لحظة مفرحة من قلب الوجود فيَنعم مع سُلَالته بنزهة هانئة تنسيه منازلة أيام.يقول ڤولس كولكسيز عندما إمتدت خراطيمه نحو عائلة تزهو في حديقة قائلا: كيف لهكذا إنسان أن يعيش مع كل هذا الثعب؟ ألا يدركُ أننا جميعاً نزلاء على هذا الكوكب؟

إنَّ هذا إنسان المقهور جوعاً ،لن تكفيه قضمة واحدة،سيحتاج لأكثر من ذلك.فالسوء دائما يلاحق أشياء النازرة،وحتى البشر الجيدين لا يُخْطِئهم هذا السهم المسموم،فحتى وإن كانوا مجرد نزلاء فَانينْ،فإنهم أيضا مَعْنيين بشَقاءنا،متذوقين نفس ألمنَا وشقاءنا.فليس على إنسان أن ترعبه تلك الدمية مهدمة أرواح،التي تشعره بغياب الزمانْ،فالزمان مع الغياب كائِنٌ،فلا تنخدع في غيمة بيضاء فوراءها السوادُ يتراكضُ.وكل حكيم نال قسطاً من الرواَء قبل أن يصدق أي غيمة ترقُصُ...كن في ارتواء حكيما لتجذ في المساء ما إرتويت لأجله.في أسطورة ما ،حُكيَ أنه كان

هناك مجنون قد سكن مقبرة مهجورة،لا يطأها الأحياء،ليس خوفاً بل ما قيل عن الأموات "أن الذي أفناه الزمان،فأيضا الزمان سيفنينا،وما دعوى الخطيب إلا نيران تكسو الميت "فمن ترك نُزُلَهُ تَرَكَهُ أَهْلُهُ،وقد كان المجنون مولعاً بالغناء ،ومرةً راح وسط الحشد يغني ويرقصُ على رؤوس أصابعه،فقيل عنه بائسٌ،وقد سار الى حيث تقوده أسماعهوالهتافات تكسو أجواء،فيقع في أذناه صراخ الجماهير تستعجل سماع صوته،فإنتهى به الأمر واقفاً على مقبرة مهجورة فتوسد أحد القبور فقال مبتسما: كنْتَ بارعاً في إضحاكنا يا سيراف،أراك الآن تلتزم الصمت،أين حسُّ دعابتك ؟ .لا تقلق فأنا اليوم أغني لكم بالمجانْ فقد يجيء أحد مكاني ليسخر مني وأنا أتوسد أتربتي ذون أن يجيذ غير النواح،فأكثر ما يعذب المرئ سوء النوايا التي يظل يَسْمَعُهَا.

أخبروهُ أنهُ على بُعْدِ مئْترينِ من العدمِ ،هكذا جاءَ لِيْسْلوُ كولفيدن الخبرْ،هذا الشابُّ الثلاتيني الذي بدأ شوطه منهاراً مع فكرة الموتْ،حتى ظنَّ أنهُ وفي هذا العمر سيواجه الحياةَ وسينتقل من الإرهاقِ الطفولي الى النضجِ البائسْ،كانَ مملوءاً بالأملْ،لكنهُ سرعان ما إنْهَدَّ كلَّ حماسهُفي تانية.

تعرض لنوبة إغماء فحملوه الى المستشفى وحينما أفاق وجدوا لديه ورمًاْ ،سيموت بعد يومَين،لدى كان عليه فعل مايستطيع لتحقيق مالم يحققه من قبل،فخرج يصرخ وسط الناس بأنه سيموتْ،فيبتسم لبرهة ويعود للنواحِ،لقد صرخ في وجه الجميع دون قيدْ وبحرية مجحومة مليئة

بالحقيقة،لقد أُبيحَ له فعل ما يشاءْ،فحتى أنه كانَ يلقَبُ بالكاتمْ،إنه أبكمْ في اللحظاتِ الحاسمة لكنهُ سرعانَ ما يفجرُ صمتهُ بكلامٍ صادمٍ يقتلُ من يقصدهُ،لدى فكرَّ في الصمتِ كيْ لا يُبْدي جرحاً في أحدٍ....وحينما اتى موعد وفاته لم يمتْ وقد ماطلت حياته قليلا من الوقتْ،لوقت يِاِس وراح يلعن الطبيبْ والعالمْ،إنه يحس بخيبة أملٍ رهيبة فلا هو قادرٌ على البقاءِ صامداً ينتظر سكراتِ الموتِ ولا في وسعه أن يفعل شيئاً،إنه يخافُ أن ينتهي به المطاف ممدداً في الشارعِ كالقطِّ الذي ماتَ بسُمهِ.قلق عظيم هذا الذي يوشك على قتلكْ،ففي بعض أحيان يكونُ القلق القاتل الذي لا ينتظر حكْمَ إعدامْ،إنه متهورٌ بشيء من التجاهلِ،لا تقلقْ فالموتُ قد تأتيك بطرق غير اعتيادية كسكتة قلبية ربماَ،أو صدمة دماغية،المهم أنك ستذهب فيها عارياً لدى لا تقلقْ.

روح الثَّعْبَانينْ " الآفُولِيونْ"

وماذا بعد ؟...

حيث لم ننتشي بعدْ،في ذاك المكان المرفوضْ،إنه من أنبل الأماكنِ تعطشاً لإحتواء الساخطينْ،إنه سفحنا الذي يلقي منْ عليهِ سخطاً مريعاً نحو القاعِ،إنه علاجنا نفسيِ،ومُرعبَ الثعْبانينْ،سيقرأها الوغد ثعابينْ" فلا يهم كلاهما صحيحْ،فالثعابين أيضا تستحق كل التقديرْ،إنها تلقي دوما غشاءَها في الطريقْ،إنها تخبرنا أنا موجودة،فالحذر يا هذا...فلا يهم ما إذا كان من المقدر لنا العبثُ في النفسياتِ الثائرة،ولكننا موجودون فيها.فكل منا يحمل قبساً من الشعلة يتفاوتُ حجمهاَ.والساخط الوحيد من

بلغتْ شُعلته حجم البحرْ،فتوقف جسدهُ عن إحتواءها،إنها تجثُو الى الخارج في شكل حزنٍ مضنِي وعبوسٍ قاهرٍ يربك تلك الملامح الصبيانية..فكثيراً ما يخطئ الناس في بلوغُ القناعة بشيءٍ يظنونه صحيحاً،فالكل يرى الجسد قوَيا والقليل من ينهبُ خبرُ أعماقِ،فحينما يتخم الحشدْ يصبِح السؤال جواباً،والجوابُ جوابًا...

ماذا حصل بعد أن أتْخِمَ الحشدْ؟

حينما تشبع الكلاب تستلقي ليس لأنها إدخرت ما يسد جوعها لأيامٍ عدة،بل لأنها مثعبة،لدى لا تأتي الكلاب إلا وهي متخمة ،فدائما بعد التخمة يأتي الثعبْ .فمن يلاقي ثعب الناس وجد ظالتهُ،ومن لاقى قوتهم عانى مقاومتهم..تلك هي اللحظة المناسبة،إنها نقطة إلتقاء الطلب بالقبول،فإن جئت قبله سترفض وإن جئت بعده سترْفضْ...دائما أحْسِن إنتقاء اللحظة المناسبة ..ولا تلاحق المشاعر فهي أولى العقبات التي تمثل دور المصيب في كل لحظة،كالسنجاب الذي أطعَموه الثمر بذَل البلوطْ ..حَقًا لقد أصيب من قال أن في بعض أحيان نرى الثمر كالبلوط خصوصا وإن كنَّا سناجب مثهورة.

قيل ذات مرة لا تسرق الطعام من فم الذبْ،بل دع الدب يضعها ثم إسرقها،لستُ أعلم ما يقصد ولكن في كلتا أحوال مجرذ سرقة،فالسارق المتهور يعاقب على ما إقترفه من ذنب،ولكن السارق المحترف يجذ المفر كل مرةٍ،إن هذا اللص ليس سوى نطفة من بحر جاثي من المنحرفينْ،فهو أقل مرتبة منهم في سلم الجريمة،ويا للأسف ليس

المنحرفون سوى أولائك المثعبون الذين استنشقوا سموم الحياة من مستنقعهم البالِ،إنهم يتامى قبل أن يكون منحرفين...فليس المرءُ ما يريد ان يكونهُ،بقدر ما يضطر كل منا ليكون شخصاً يستحبه الناس أو يذمهُ،وكلاهما نفس الشخص ولكن ليس بنظرة واحدةٍ،فقد ترى إنسان مذموماً،حقيراً ولكنه في أنظار البعض ملاكٌ نبيلْ،وكثيراً ما نخّطئ في ظن الذئب خروفاً،والخروف شبه ارنب بريئْ،والحقيقة أن لا أحد منهم يقل وحشية عن آخر،فكل منهم يرضي طبيعته بطرقه المعتادة التي أَلِف الدفاع عن نفسه بها،غير أن إنسان أفرطَ في نصب الفخاخْ،حتى ماعاد له أن يرضى دون الوقوع فيها،بالكادِ نسيَ أينُ خبأ الفخاخْ.

حينما يولد الفنْ،تفترَش أرضيته بالحصير القاسِي،لينهض المخلصون أصحاب الأذواق المريعة تلك التي تحولأي شيء لنكثة،فمن أين ولدتْ هاته أذواق ؟ وأي مستنقع ذاك الذي أنجبها ؟

تولد الكوميدية في كل مستنقع بائس قد تغلغل في أحشاءه الشقاء وإنحطاطْ،بلغة الشارع إنها المتنفس الوحيد لتلك الأرواح المضطهدة،ليسَ السارقُ والمنحرف سوى شكلٍ من شخوصٍ أبدعتْ نفسها بين أنيابِ عجزها عن الحياة،فلا مهربَ من أن تكونهُ،فالحياة لا توزعُ الأرزاق بالتساوي،فحتى من إدعى الخلاص ظفرَ بالآسى،هذا الذي لن ينساه مجرز قطِّ فاز بفأرٍ مات مسموماً،إنه لا يدرك أن إيجادهُ للصيد ليس مهارة منهُ بل لأن الفأر كان ثملاً،فهؤلاء هم المحبطونْ،فدائما ما يستغلون المشهد ليبرعوا في إبداعِ نكثٍ تعيشُ بينَ الهواةِ كنوافذ ثغيتهم

من حياتهم البائسة،لستُ أدري ما بقي لهم فحتى الأشجار والحيوانات صارتْ سخرية لهمْ،حينما خلصوا منها إتجهت كل أنظار لذلك أنسان المريضْ،حان دوره ليكون النكثة الليلة،لقد كنتُ بينهمْ،حينما كانوا يوزعون الأرزاقْ، بل الإيجابية المزعومة،أرسلوا القليل بالكلماتْ،وواصلو دَك الكثير في أعماق المشلولين برقصهم البشع الباعث للقرفْ،حتى كدتُ أستيقظ لأنال نفسي،فسمعتُ قولا كاد يأتيني في المنامْ،أن هؤلاء الكوميديون أصبحوا مهرجينْ،والعرض التالي ستكون فيه راقصة مثيرةْ،لقد برعوا في إثارة الحشدْ،فحتى العشبُ ما كان له أن يعوضَ مكان نعجةٌ مثيرةٍ.

إنهم الرَائعون،الناذرونْ،ذوي النفوس الثائرة التي لاتخشى إستسلامْ،فإستسلام ليس عبثاً،فقد يكون حيلة الإفلاتِ من شهية الأرانب الضائعة،ليسوا بارعين سوى في أن يكونوا رائعينْ.هكذا أنجبتهم الطبيعة ودمرهم المجتمع،فما إن تولد الشرارة،فإما أن يحبطها المغفلون لتعود رماداً يلقي السَّمادَ على الأرواحِ المُربكَة،أو أنها تشيخُ بشعلتها المحترقة لوقتٍ تجذ الحشد كلهُ محترقًا بوهجها العظيم،فلا يتبقىغير القضبان على حالها لم يثرها وهجُ النيران الجاتية ،كل من في الزنزانة صار رمادا،حتى من أشعل النارَ.لدى فالأجدر بالعيش هؤلاء العظماء الذين يعلمون بشرارتهم التي قد تحرق المحصولْ،فهم أفضل من يتستر على الخطيئة،فالذي تنقلب شعلته إلى إبداع سريعاً ما تنطفئُ،ليظل الدخان يسمم الجمهورْ،فالكل يظنها وهجٌ ونورٌ يضيء عتمتهم النفسية،وسرعان

ما يجذون أنفسهم مختنقين بسمومها،فالرائع أن بعض الأرواح الصالحة تقاوم الأمواجَ بالصخورْ،كي لا تعيدها للبداية متنسايةَ حجم الكارثة التي لن تنجوا منها،فالتفكير في العودة لربما كان أصعب من الغرق مع الصخرة،هذه الشلة من الغرقى يستحيل إقناعهم بأن العودة أفضل من الغرقِ.إنَّ الصخرة محضُ جثة تسحب باقي الجثة إليها بدعوى النجاة،فليست الصخرة في نهاية المطاف غير إنسان مسمومٍ يراه الكل قارب نجاةْ،ولكنهُ في الحقيقة ما هو إلا قاربٌ مزروفُ أثقلتُهُ الوديانُ ضربًا بأمواجها حتى ما عاد له سوى البقاء قانطا يدفع الناس لبلوغ الأعماقِ وهو نفسه يخافها..فأكثر المحبطين يحاولون خلق شيءٍ مثيرٍ ليخفوا عتمة شعلتهم التي انطفأت حديثاً،سَتراهم يعيّتون بوهجٍ مزيف لا يستمر إلا على أنقاض المثعبين أمثالهمْ،هذا الوهج الذي لا يستمر لن يحيي نبتة من سباتها للأزلي،فكيف له أن يبني جيلا من العظماء؟ حتى وإن كانت العظمة تبثُّ في النفوس المقهورة ،المتعبة من الحياة،لكنها في الأخير تظل منتسبة لشعلتها التي تحترف تهديم كل الذواتِ،حينما ترى أن الشعلة مزيفة،تتركها فتعود بخيبة أملِ المهرجِ المفجعْ الذي لم يحتسي كأسه على المسرح ،إن بناء جيل من العظماء كبناء جدارٍ صلبٍ فإما أن تختار الأصلح لصلابته أو الضعيف لهشاشتهِ،فالجدار الذي يدفع العدوان من غير الممكن أن يكون هشًا،والذي يُسَربُ الأوغادَ لنْ يكونُ أصْلحْ،فجيل من العظماءِ لن يولدْ سوى على أنقاض الهتافاتْ،لن يكونَ الجدار وحده كافياً لدفع الأدى عن الأمة،بل صانع الجدَار نفسهُ من

يعطيه قيمتهُ،فالجدار الذي يوجد في الصحراءْ لا قيمة له،مهما كان الجدار قوياً سينهار ذات يومْ،فهذا هو إنسان اليوم ،لقد ولد في الصحراءْ بطباع الزوابع الرملية المتقلبة،وسرعان ما استوت قدماهعلى ربيع هشّ يلامسخدوده المقفرة،فلا هو يعتاد الربيع ولا يترك الخريف يذهب في حاله،فمن أَلِفَ ملاعبة الزوابعِ يموتُ بلطافة الجوّ وهدوءهِ،لدى لا تُنْبِتْ الزهور في الصحراء فإنها لن تعيشَ طويلاً،فكل الطباع المريضة اليوم هي خطيئة هذا إنتقال العنيف بين الطبائع،الأصل والفصلْ،ما كنا عليه وما أصبحنا عليه..فالبيئة التي تصنع العظماء قد تَلدُ المتهورينَ وذوي النفوس المحبطة،إنها البيئة التي لن تناسب من عاش في الصحراء طويلاً ولا منْ ألف الأدغالمنذ الصِغر،لكنها ستألف من لم يجذ مخبأً ولا مأوى،من عاش في الشارع وحافظ عل نفسه من ظرافته،فأكثر النبلاء اليومْ ولدوا في مخبئ الذئاب،وإستمروا في العيش كغربانْ،فالأمة التي تهمل نوابتها يستحيل أن تتقدمْ،وسرعان ما يُهَدُّ حيلها ليموتُ متزعم القطيع ،فالفضيع أن يكون القطيع سرباً من الأطفال فما إن يموتَ قائدهم حتى يغيتوا في أرض كمنحرفينِ،إنهم يجهلون ماهم عليهِ،فيبدأ الصراع حينما يجهل كل شخصٍ موقعه الصحيحْ،فلكي تعيش الأمة بطلاقةٍ عليها أن تبني جداراً قاسياً لا يخلع أبداً ،ولا تكتفي به وحدهُ،فأكثر ما يجعل الأمة تنهارْ،إستهتار قومها الذين يظنون أن العدوا يوجد في الخارجِ وراء ذلك الحصن المنيعِ من الشباب اليافعينْ،فسرعان ما تفيض أحشاءهم بالمرضِ والسموم القاتلة على يدٍ طبيبهم المخلصْ،لكي تتقدم

أمة على الطبيب أن يكون شريفاً،وعلى الصانعِ أن يتقنَ صناعة الجدارْ،فالذي يصنع جداراً صلبًا لن يمنعه ذلك من صناعة أنبل الناسِ وأصلحهمْ،فكلما كان الجدار مراقباً يسهل إمالتهُ وإصلاحه،فمن أغفل هذه اللحظة، فسينهضَ من بين ركامهِ من يفسد قطيعه،بل يدمر محصوله ليظل ماسكا رأسه ينتحِب لما قد أنجبته بطونهم المريضة.

فمن يكون هؤلاء المثعبون ؟ هؤلاء الذين يطفئون شعلة التقدمِ وإزدهارْ؟

ليس الكوميدي النافع سوى كوميدي تلك الأوقات الغابرة،حينما كان الفنُّ شيئا يصعب لمسهُ بقدر ما كان له أن يغتشي في أرواح دون أن نحس،لحظة مسرعة تنذر بالكثير من المعاني،بحياة كاملة لأحد الهواة،كان عرضاً واحدا يكفي ليطعم تلك النفوس المحبطة لعامين،تراهم يتناسونَ أبناءهم ولا يَنسون العرضَ،ولا النكثة،فطبعاً قد ينسى المرءُ صاحب النكثة ولكن النكثة تظل في أعماقِ تلك الزجاجات الفارغة " أناس محبطين" لقد أصبح الفن مجرد إسمٍ بينما كان في الماضي روحاً تتنقل في كل الأرجاء تنثر سحرها وبريقها الأخاذْ،صار العرضُ بالساعاتِ واليوم بطوله لا يكفي ليضحك أحداً،كأن كوميديي هذه الأيام فقدوا حسهم الفكاهي،فقد صارت أرواحهم باردة لا تبثُ سوى الجليد في أدمغةالجماهيرُ،فحينما يفقد الكوميدي شعور بالعيشِ كأحمقْ،يصبح مملاً مثيرا للضجرِ،فلن يبقى غير شبه إنسانٍ يجني المال من ملل الناس وضجرهمْ ..فالفن حينما أصبح سلعة تباعَ فقد نفسهُ،كتلك المعزوفة الموسيقية التي كان يجيدها القلةُ من المطربونُ،وسرعان ما أجادهاالكل

وصار الكل يعبثُ فيها فيبتاعهااللهواةِ الذين يريدون القمة،والقمة نفسها لا تصلح لأيٍّ كانْ...فحتى ذوي الحبال الجوهوية ماتوا قهراً حينما رأوا أن أكثر من يغني اليومْ كان مهرجاً البارحة.صار الفن مقرفًا حينما أجاده الكلْ،فخاصيتهُ الأولى والمتميزة،هي أن يجيده القلة القلائل فقطْ،ويظل صعباً على البقية.حينما فتحَ الباب أمام الجميع صار الكل الى الفن يدخل حتى المنحرفون أنفسهمْ،فينبتون سمعة من لاشيءْ،بأغنية مشوهة قد توقظ أموات من قبورهمْ،فهؤلاء الساخطون هم فقط مثعبوا هذه الأيامْ ...

إني لا أهتم لمن يبيع الفراشَ ليبتاع الأخلاقْ،ولا من يجيذ سرقة الفنْ ليجني المالْ،لكنمن المزعج حقًا رؤية هؤلاء المحثالين يرقصون على أنغام القطيع كمخلصينْ،كتلك الادوية التي تعالج أيَّ مرضْ.

فلا تجلِس إلا حيثُ تضيءْ،فبعض الفراشاتِ تحترف الرقصَ لوحدها،فإن صارتْ مع السربِ فَسُدَ رقصها،لدى فبعض أرواحٍ لا تضيء سوى بين الحشد مع أنها تعلم أن ضوءها الضئيل لن يُشْبِع أحداً،لأنها تحب الهتافَ فقطْ،فلو أضاءتْ ولو بصيص نورٍ في الظلمة لترى العثمة ترقصُ مبتهجة في أعماقها،نحن دائما ما نصْبوا لإثارة كل ما حولنا ولكننا نجهل أن إثارتهم تتوقف حينما ينطفئ الضوء،ويخرسُ وهجُنا،سترى أن كل المراهقين معجبين بتلك الفتاة التي تحصدُ أثقل العلاماتِ في إختباراتْ،تجدها أجمل فتاةٍ في القسمْ،حتى أبشع الفتيانِ تراهم مترقبينَ أمَلاً منها،يا للأسفْ فلأرواح المتعبة دائما ما تبحث عن سبيل لتظل شعلتها مضيئة طوال الوقتْ،هل سمعتَ الجواب؟ أخبرتَ

أجمل فتاةٍ أنك معجب بها ؟ وأنتَ أبشع مخلوقٍ تَقَدَّمَ لمدْحها،ماذا قالتْ؟ أجل أخبرتك بالحقيقة،لم تخبرك أنك بشعْ،ولكنها إلتوتْ كأفْعوانٍ ماكرْ،ونطقتْ بصعوبة أنتَ أجمل إنسان على الكوكبْ،لكني لستُ جيذة في العلاقاتْ،اسفة لستُ أطيقُ أن أكون مع أحدْ..أيُّ طيبة هذه،هل أنتَ فعلا أجمل من على الكوكب،أيُّ كذبة هذه،حتى الضفدع يومًا لم يسمعها من فم تمساحه العزيزْ،أين سيذهب أولائك الوسيمينْ المساكين،ربما كان الحلَّ الوحيدْ لإبعادكَ عنهاَ،هو إعطاءك السمَّ مع الحلوةْ،فالشيء الجيذ أنها لم تجرحْ مشاعركْ والسيءُ أن كل قولها محضُ أكاذيبْ،ستعثر على وسيم وستكون مضطرة لمصاحبتِهِ حتى و إنْ كانَ أَحْتَلَ مخلوق على وجه الأرض ،فالفتاة دائما ما تقول عكس ما يوجد في أعماقهاَ،فهي تكرهُ الحيواناتِ المتوحشة ولكنها تحبُّ قطتها حينما تغضب.فالأمر متعلق بالفراء يا عزيزي،لديكَ فراءٌ سيحبك الجميع كنتَ أصلعًا لن يراكَ أحدْ..فأقبح الفتياتِ أنظفهن ملبساً،وأوسخهن عقلا.لا تنسى النصيحة،إبتعد قدر المستطاع عن أولائك الفتيات اللواتي يقدرن مظهرهنْ،فهو الشيء الوحيد الذي يجعلهنَّ مثيراتْ،يرفعن أنوفهن إلى السطحِ،ولا تحاول الوقوع كالأرنبِ في فخِّ ذئبٍ جائعٍ فقط لأنه وسيمٌ ،فالذئب حينما يجوع لن نظر الى فرائكَ ولا لجمال ضحكتكَ،سيعثر فيك على وليمة تشبع بطنهُ ليسَ إلاَ ...لا تقع في الحبْ،لأنه أول من يحاول إخماد شعلتكَ،وبدل ذلك حاول إحراق الحشدِ ببهجتك المألوفةْ،فأغلب الفتياتِ يحببن الرجل الغير مألوف ذاك الشخص المعتوه الذي يظهر كإستثناء بين البقية.

ينبغي أن يُعاد للفن شعلتهُ،وللفكاهة نفسهاَ،عليهم أن يتخلصوا من ثقل ارواحهم الباردة ويشعلواَ بقية العالمِ بشيءِ غير مألوفْ،فقد أصبحنا نعلمُ النكثة قبلَ أن نرى وجه المهرجْ،والأغنية قبل أن يغنيها الهواةْ.ولا تتوقف إستمر في المشي،سيأتي من يضع لك عقبة أمامك كي لا تمر وهنالك من سيضع لك المال لتتوقفْ،لدى كنْ الشعلة التي لا تنطفئ،فنحن اليوم محتاجون لكل شرارة لتضيء هذه الأمةْ.

في مكانٍ ما،وفي قرية ما،كان الفن يدعى جرمًا،فمن وجِدَ يغني يُعْدمْ،ومن لاقاه المصيرُ وهو يرسمْ يلقونه في بئر دون أكل لمدة شهر كاملْ،ظلتْ القرية لعشرينَ سنة تنهب من نفسها،تعيشُ نفس الروتينْ،ذات يومْ جاء رجلٌ عجوزٌ يصرخُ وسط حشدها،لقد أتاكم إنسان مريضْ فهل هنالك علاجٌ،ظلَّ يصرُخُ طويلا ولا أحد إستجابْ، فتوسد الأرضَ وإفترشَ عشبهاَ،وإستلقى كمنْ أثعبه الرحيلُ،لا أحد إهتمْ ظلت إنسانية تتنحبُ أمامهُ وهو كجثة تقاوم ألا تنهدَّ بعدْ،في الصباحِ إلْتمَّ عليه الحشدُ من أطفال والعجائز،أما الشباب فالأمر بعيد عن إهتمامهم،إنهم متفوقون على إنسانية،يسألون العجوز :

ماذا يؤلمكْ؟ أين تظن أنك تتألم اكثرْ...؟

هنا..وهنا...وهنا ،كل جسدي، أظنه يحاول تركي...

ماذا تقول يا عمْ،هل لديك دواء كنتَ تتناولهُ فيتوقف ألمكْ...؟

لقدَ كنتُ اتداوى بشيء قد لا يخطر ببالكمْ؟

أخبرنا لنجِده لكَ،فمهما كان غريبًا،فإننا أغربُ منه.

إنَّ علاجي الوحيد هو الفنُّ،فأحضروا لي عازفًا بارعاً،يجعلني أرقص على هواه،أو رسامًا محترفًا يجعل جسدي يتحرك من فرط الذهولِ..

أوه ماذا تقولْ،لأول مرة نسمع أن هنالك من يتعالج بهذه أشياء،إننا قد نعالجك ببعض أعشاب السامة،غير ما ذكرتَ فنحنُ لسنا ممنْ يعالج بتلك التفاهاتِ...

فراح العجوز يولولُ،ويصرخُ محاول أن يثير شيئا في نفوس الحشدِ،فقال : إنكمْ تجهلونَ تأثير الموسيقى على الأرواحِ،فكثيرٌ منْ لم يرى فيها شيئا،وقليل منْ أدركَ أنها علاجٌ حاسمٌ للنفوسِ المقهورة والمتطبعة بالمرضِ...فأحضروا لي فنانا لتروا بأم أعينكمْ..فقبلوا وراحوا يبحثون له عن فنانٍ بينما هو ليزال يتوسد عشبه العزيزْ،فكانتِ الفكرة أن يقتلوا الضجرَ بشيء جديدْ،ولِمَ لا يكونُ علاجا فعلا هذه المرة،فأول مكانٍ توجهوا إليه هو بئر النسيان حيْثُ يُلقى فيه من يغني أو منْ إصطادوهُ وهو يفعل ذلكْ،فقد كان هنالك في القرية ثلاث شبابٍ يجيذون الغناء مع فتاة تحترف الرقصَ،وكلهم قد ألْقَوا بهم في ذلك البئرْ،فحينما ذهبوا ليحضروا أحدهم ليغني للعجوزِ،وجدوا شابانٍ ميتانِ أما الباقي فلا يوجد لهمأثرْ،والمحثمل أنهم نجوا بإحترافهم ومنْ بقي هنالك سوى من أوقعتْ بهم غريزتهمْ..فتذكروا ذلك الرسام الأجنبي الذي سجنوهُ في كهفٍ مهجورٍ يدعوه الكل بمقبرة الساخطينَ،فحينما دخلوا اليهِ كانتِ الظلمة على وهجها تُذْهِبُ البصرَ،فلا يرون شيئا،فحتى أنفسهم بدأت تصطدم ببعضها خوفًا ومهابةً،وبعدما بلغوا عمقالكهف،أشعل أحدهم قداحتهُ

الصغيرة،فإذا بهم يصدمونَ بالمعجزة ،إنها رسوماتٍ على ظهر الكهفِ،تصدر بريقاً لامعا مذهلا،كأنهم دخلوا لعالم آخرْ،فتموج الألوان والرسوماتِ ظل حبيس أنفسهمْ،والكل ابدى إعجابه بالأمر إلا إثنينِ من أهل القرية متزعم الحشدِ ونائبه العزيزْ،فراحوا يتتبعون خطى الرسامَ لإيجاذهِ فحينما وجدوه فقذوا الأمل،ونالتْ منهم الحسرة،فقد ماتَ المسكينْ وهو ملتفٌ بغطاءٍ رثٍّ وبالي...فحينما إقترب منه أحد العجائز نط في وجهه كالقطِّ المتوحشِ الذي لمْ يأكل منذ زمنْ،فمن فرطِ إندهاشِ والإرتعاب صارَ الكل يضحكُ،فحتى الرسامْ قد ارتعب في بادئ الأمر وسرعانَ ما فهم مقصديتهمْ .فأخرجوهُ من مقبرتهِ وأخدوهُ لذلك الرجلِ العجوز كيْ يشفيهِ من مرضهِ،بعدما وصلوا لمْ يجدوهُ ولكنهم وجدوا ورقة مكانهُ تقول : لوْ قيلَ لكمْ عنِ السعادةِ أين توجد؛ لمَا فضلتم التعاسة،فاليومُ لمْ تجدوا لي علاجاً بل وجدتهم لأنفسكم سعادةً،كيفَ شعرتم حينما دخلتم تلك المقبرة،لا يكذبن أحدكم ليخبرني أنه لم يشعر بشيءْ،حثما أحدكم سيعترف بهذا الفضل الغريبْ،إنه الفنُّ يداوي أي نَفسْ،وقد يقتلها أيضاً فحاذروا من الفنونِ المريضة تلك التي تنبعُ من هوة الحضيرة من بين أرجل الخنازير حيث يوجد الوحلْ،لمْ أكنْ مريضاً ولا أحتاجُ لدواءْ بل أنتمِ المرضى وما أنا سوى مُخلِّصُكمْ،أنا من يضع الأحجار لكي يسهلَ عليكم إجتياز الوادِي،لدى لا تحكم على شيء إلا بعدما ترى فائدتهُ،فإما أن يعليكَ أو يحبطكَ،أن ينجدك أو يقتلكْ.....إنه الفنْ.

الفصل الثّاني

-١-

الخدعة

كيْف يُصْبِحُ إنسَان قَويـاً !

إن أولى طباع القوة،هي رؤية نحو أعماق،إنها لحظة مخادعة تبت في أنفاسك روح التفاخر فتجد مكانه روح الغرور ،هكذا وجدت نفسي. إننا نُخذَع في أن نكُون أنفسَنا،حتى الذي يظُن أنه سيَعيش طويلا يُصدْم بأن العدم يراقبه من النوافذ مُترَقِّبًا اللحظة المناسبة لانتِزاع الأرواحُ الشابة.

إنه نسر ضائع في أدغاله؛دون أن ترتع قدماه على غُصن يَقِظ يُحْييه من غفوة الثعب،ريشه البني المتساقط كورق الشجر قد غزاه الخريف،فلا يُبْقي إلا على من يَصلح للبقاء قانطين في الدُرَرِ،ينتَظرون فرصة النَّجاَة من تلك الوقفة المرعبة التي بها يصمد المرءُ الى أن يبدو ساقطًا بكل ما يفوح منه من شقاء،ليتهاوى الى أسفل كورقة من الخَيزران قد أنهتها دعسوقة بائسة ،ليلتقي بقاياها مع جوع دودة مثعبة وهنا تنتهي اللعبة،فكل من يراني واقفًا دون ريش ابتسموا ضاحكين"اوه لقد نسي ريشه في عشه "،فلم يدركوا أن كل طائر في يوم ما سيفقد كل ريشه،ليبقى عَاريّا خجِلاً،لا تحميه سوى إحتكاكات قاسية لتلك المفاصل المرتعشة،الى أن يموتَ مُتجمداً ببرده العزيز،إن أمثالهم قد تخطو فهم الطيور نحو فهم الزواحف تلك التي تحب الوحل والبركةَ بماءها العكر،واصلين لقعر المجاري حيت تقبع باقي الجردان اللطيفة،التي تزرع الرعب في النفوس بعبوسها المميت،وتَواجدها المسموم.

أصيح بكل وضوح،بصوتي البشع،المثير للقلق،الذي تمل منه كل الأسماع،وتعتَسِرُ لرؤيته كل أبصار ،فكم خيبة تعتمر في قلب ك الوغد البائس الدي يفقد قدرته على الصيد،بل تفْلِتُ سمكته من بين مخالبه المجحفة،لترقص السمكة مستمتعة بهذا الإخفاق اللعين،ليعود الى عشه دون مأكل، بخيبة متطبعة في قالب فكاهي على جبينه الصغير ،فَيبِيتُ العقل في المعدة،والفراغ يرقص مع الروح بدل الطعام،الى أن

يَمَلَّالجمهور،لِيَذُبُوا هَارِبِين من بشاعة العرض وسفالة الراقصين المحبطين،فكيف لا يَغْدُو إنْسَان قويًا؟

إن الذي يولد على أنقاض إنهيار،لا يمكنه البتة أن يعيش على رأسهامدلولا ،لا تحمله قدماه،إنه مدرك تمام الإدراك أن العيش يتطلب أن يقِف مُجْبَراً على إمتطاء كل سفح يقابل أنظاره المبتهجة،ولا يعني أي سفح،ذلكالذيتبيض الطيور بين صخوره في عتمته الخانقة،إنها قد إختارتْ مسْبَقًا،بيئة تَصْلحُ لولادة فراخها.هذا ما على كل إنسان أن يفكر فيه، قبل أن يبْدلَ جهدا في إنْجَابِالمُرْهقِين،إن إصلاح أي جِيل يبدأ من إصلاح بيئته.فأغلب من ولدو في المجاري لم يوفروا جهداً لتقدير الجمال قطْ،إنهم خنازير يرون في الوحل أفضل ما يوجد على إطلاق حتى الآن.وحتى من ولدو بائسين،قد أنجبتهم بطون عسيرة داخل بيئة تواجدتْ لتشقى الى الأبد،فلا يزدادون إلا بؤساً على بؤسهم،وينعدمون بهذاالجميلِ،فلا يندم المرء إلا على ما لا يرضيه ابداً.فإنسان يولد تم يرى ما يكونه،إما أن يصير قوياً أو يصير مدلولاً ،فالقوة تأتي بعد إنهيار وليس قبله ،وأغلب من صاحو إننا أقوى،كان سجلهم في ماضي الزمان بشِعًا أوردتْ فيه آلاف إخفاقات المضحكة،لنرى ما قد صاروا عليه ،بل ما جعلهم هكداً،إنَّهُ داك الكمْ الهائل من إحباطات التي أوسعت النفس ضرباً ،فلم تَقُمْ من بعدها إلا كَقتيل يحَاول النجَاة من صائده المحتال.

إن أكثر ما يجْعل المرْءَ قوياً كثرة الخيباتِ التي تلقاها منذ الأزل،فَداك الأرْعَنُ المُدلَّع الدي بقيَ صَامداً في وجْه من خدعُوه لا يَرى نفسه إلا

فــي أنفســهم هم،لتســأله كيــف حالــك ليجيبــك" نحــن بخير" ،هــذا التَســمُ الفضــيع،الذي يطْــبَعُ كِيَانًــا كهــذاَ،لا يَــزُدُهُ إلا كَعَبْــدٍ وَضــيعٍ لِقَطيــعٍ يَقُــودُهُ كَـاهِنٌ فَقِيرْ،قدْ تَعَلَّمَ فنَّ التلاعُبِ ،سياسيٌّ أخْلاقي.

ماذاإنْلَــمَّ بِنَــا الشتَــاتُ ونحــن فــي القَــاعِ ننتظــر سُقــوُط الشُّهُــبِ بِكُــلِّ رَوِيَّةٍ،بِشَــيْءٍ مــن الإبتهَــاجِ المُفْــرَطِ،فلا تَــسعُنا أوضــاع لنعــود منْطلِــين كـل داك الشــغف المتســاقط،،ولا فــي أن نمْــضي مبــاغتين كـل تلـك أحـلام القانطــة دونَ عمَلْ.

فـالأحلام تموت فـي بيئتين،بيئـة المرفهين،أولائـك الذينأنْـجبُـو مـع أوضـاعهم الثَـرِيَـة،وبِيئَــة المُحبَـطين،تلك النخبَــة التــي تُقَــيّمُ الحُلْــمَ بالمــَادة،تلك التــي لــن تَـجِــدُ أرضـية لتحقـق كـل تلــك الأمانِــي البائسـة ،فتكُــون البيئــة ألتــي خُلُقَــتْ فِيهَــا تُسَــاعِدُ علــى إبْطَــالْ كُــلَّ حُــلْمٍ.ففيِ أَرض بعِــيدة وُلِـدَت فيهـا مَـنابِتٌتَنُــطٌّ فــي البِقَــاع بوَهَــج روحهـا الثــائرة حيْثتقْطُــنُ كُلأحْـلام،مُتَسَلِّقــَةً عَــرْشَ الحَـضَارةِ.فَــكَيفَ لإنسَـانِــيَة مُحْبَــطَةٍأنْ تُنْجِــبَ أَقْوِيَــاءِ مــنْ الحُــطَــام الـــذي خَـلفَـتْهُكُلّلأمَـــةٍ فِــي نُفوُسِأطْـفَالِـهَا،إنَّـــهَا تُوقِــظُ الهَــالِكِينَ مِــنْ خَلْــــفِ الكَوَالــــيِسِ لينوحـــوا لِتَانِيَـــةٍ عَلَـــى قُبورِهِمْ،ثُـــمَّ يَعـــودوا نَحْـــوَ مَرَاقِضِــهمْ،مُخْتَبِئِــينَ خَـوْفًــا مِــنْ أنْ تَوُصَـدَ أَبْـواب السَّــمَاءِ علــىَ أَصَــابِعِهمْ المُكَسَّرَةِ.فالْــقُوَّةُ لا تُولَـــدُإلا مــنَ فَــوْقِ الخَـرَابِ،عَــلـىَ رَأْسِ كُلّرُكَــامٍ حَيْــثُ تَقْبَـعُ خَيْبَاتُ أمَلِ المُـزْعِجةِ.

لتَكُــونَ قَــوياً يَنْبــَغي أَن تبْــذُلَ مــا يُسَــاوي تِلْــكَ القُــوة التــي تسْــعَى لِتَكُونَهَا،فُكُــلُ قَــوِيٍّ نَـــزَفَ أَلافَ الذِمــَـاءِ،في سَــبِيلَ أنْ يَكُــونَ علــى مــاهو عليهِ.

فــالقانونُ الأول فــي القُــوةُ أنْ تَحَــطِمَ ضَــعْفَكَ أوَلاً ،ثُــمَ تبْــنِي ذَاتَــك عَــلىَ أسَــاسٍ مَعْقُولْ.

والسـؤال : كَيْـفَ للْمَــرءِ أن يُحَــطمَ ضــعْفَهُ؟ بَـلْ مَــا هـوَ ضَــعْفُهُ ليُــطَالِبَ بِتَدْمِيرِهِ.

كَـمْ يَسَعُنِــا مـنَ التَّخْمِيــنِ لِنُــدْرِكَ ضَـعفَ هـذا الكَــائنِ المسـمىَ إنْسَــانْ! لا إجابة!...

عــاش فــي الزّمَــان مـن لــقَبَالعدوا وهـو صــديق،ومن سـعى الـى الخيـر فبـان لهـم قــاسٍ شــريرْ،من بـان فــي المــروءة يصــنع أكاليــل...ومن إرتــد الــى الســمــوم يُطــعم المساكــين،رأينا فــي العــالم نســراً يغـذوا سـحلية وسحْــلية تصير ثـعابينْ...نعم رأيـنـا الكثير...

رأيــتُ فعجزتُ،ونهضــتِ ثــم ألقيــتُ،لا أخفِــي أنــي أتــقيأ جرعــات ملــل قاتل،بـل أعـاني حصـبة الإحتضـار،فكم هـو قاتـل أن تعـيش محتضـراً طـوال الوقــت،بين أنفـــاسكَ وأشــجارك وأحجـارك ولــك مــا يحـيط بـكَ، الــى وقــت تغفو دون إستيقاظ .

يُـــنَادونني سـيرج الأخرق،نسـبة لمــا أبــدوا عليْــه مــن ســذاجة،ولكنهم يخطئــون فــي منــاداتي دائمــا فيتناســون إسـمي ليقولــوا" يــا أبلــه"،إنهم دائمـا يشـككون فـي مقـدرتي علــى هجـرهم،فقط لأننـا نتشـارك القريـة نفسـها والحيـاة

ذاتها،بل وحتى الهواء المنعش الذييتلوا سيقانها وباقي أعضاءها.إنهم مزعجون حدَّ التَّمَلكِ،دائما أشعر بأنهم يحاولون وضعي في قارورة بائسة ،تلك التي أنهيها في غمزة.

أنا سيرجُ والكايْ أكْثَرُ السكيرين وسامة على إطلاق،جسدي نحيل وعيناي صغيرتان البنيتان ،وجهي دائري أشبه بالنفاخة،شعري لم يجد طموحه فيتسلق رأسي وقد بقي في جسدي،أنا مشهور جداً ،فقد تسألون عني في أي مكان في قريتي ،لتصعقوا بالردِّ،فلا أحد يعرف هذا غيري... هذا الكائن المسمى سيرجْ ،غير واحد من ألف نسمة،إنه عزيزي كابرييل سولكثين ،ساكبي العزيز،إنه أروع مراوغ شهده القرن،يصاحب آلاف الرجال ليدعوهم في الليل لحانته البائسه،تلك التي إستحدثها في وسط القرية فيدعوها بالنهار مقهى الرخيصين،وفي الليل ملهى العشاق،ولا أخفي أنني أول من وقع في فخه البائس،أنا بدوري أشكك في ما أنا عليه حقا،أنتسب لقرية أسميها بخصب الدلع،"لوغا" ،ويطلق عليها أهلها إسم " لوغادسيل،نسبة لما تحمله من ذوق بائس في الحكم،وإفراط شهي في الكوميدية،وليشهد العالم اليوم أنني سأستقيل من مهنتي كفلاح وضيع،لأنتقي لنفسي عملا يليق بهذا اليتيم،كان حلمي أن أكون فكاهياً مرموقاً في قريتي التي إستطاعت ومنذ وقت طويل الحفاظ على نفسها،رغم كونها مرتعاً لفنانيها المنحطين .بل لأشباه الكوميديين.وها أنذا أخط طريق نحو مركز إحباط المواهب ،عفوا

مركز إنشاءها كما يقولون،وقد وضعوا إعلاناً بإستضافة المواهب المخنوقة،وقد نسيوا أمر تلك المواهب التي ماتت خنقاً.

إن الطابع التقافي لهاته القرية الصغيرة مريض جدًا،على وشك الإنذثار فمع أن كل إنسان فيها ما عاد يرى في الحياة إلا ماديتها الكائنة،بروح ماكرة تكتسي منفعيتها من أوساط البالية،فإنسان أصبح أكثر بؤسًا ذو كيان رأسمالي،يحول كل معاملة الى مادة يجني من وراءها قوت يومه،الواقع لا يحتاج الى أخلاق بل إلى سياسيين كما قال أحد العجزة..

راحت قدماي تسلكان بقاع المحيط المضجج بالأشجار،بعدما إستنزفتُ كل صدقي في كذبة إعلانية،لم نكن نحن المضحكون مدعووين للحفلة،أنا وبعض الفتيان البؤساء،فأسرعت متوجهاً نحو غابة مبعثرة أطراف،محاولا إخفاء وقوعي في فخٍ بالٍ كذاك.حيث قيل عنها أنها تساعد على إستعادة الحظ الجيد،وقيل تانية أنها منفى للجيوب الفارغة،بل لأولائك المبدعون المحبطون،فالسيء في أولائك المحبطين،أنهم لايبدعون أقل من تلك الشقاوة الدائعة في أرواحهم،إنهم يُحاولون نَفْثَ القَنطِ في أي أرض يمُرُّون عليها،لدى فإنهم لايصلحون ليسَايروا العصر،لإنهم بالكاد سيثعبونه من كثرة الجري وراء إحباطاتهم.سيقولون عني أحمق،ولكني إعتدت أن أحادث نفسي دوماً،إنها حقا مستمع رائع لكل تلك التراهات الغبية التي لا يستحملها غيري.فلا يغرنك لساني السليط فقلبي أبيض ككرة ثلج في مقبرة منسية،لقد صِرْت متشرداً،أخبرك يا شجرة لقد صرت ضائعا ،وأنتَ يا سنجاب،أترانِي كَم أنا متشرد!

الكل هرب،بقيت لوحدي مع خيباتي كلها ،وها أنذا أعتمر في أرضي دون كيان يحملني،فأي جسد هدا الدي يتمنى كل هدا الثعب ،ولا جسد.

فكيف لا تنبعث القوة في جسدٍ كهذا ؟

ولدت في آذار،وفي نفس آذار بعد عشرين سنة أرزقت بأول خيبة عندما إكتشفت أنني يتيم بالفطرة،ويليها آذار الثالث عندما صاحبة الذئاب فحاولو إفتراسي بعد صراعهم من أجل البقاء،وفي آذار الرابع خانتني أول حبيبة لي مع بائع المكسرات الأحمق،اليوم هو آذار الخامس هو نهاية كل هاته المآسي المزعجة.

وهو ميلادي المحبط،إن أفضل ما قايضته في هاته اللعبة كان صبري،وسذاجتي،بل كل ما يجعلني ضعيفاً،تعلمت أن أبدل الضعف للضعف لأكتسب القوة،فقاسيتُ آلاف الخيباث،لأروض روحي على إستحمال القوة فما عدتُ أرى غير نفسي قانطة تنتظر الفرصة السانحة لتقلب الموازين. لقد عدت أسوء على إطلاق في إحباط كل حفلة بائسة لا يبالي بأحد ولا يهمه أحد.

أن تكون قويا لا تعني أن تبدو شرسا أو متوحشا بل في أن تصمد في وجه الألم مهما كانت حيلته التي يجاهد ليوقعك فيها. فأعظم من وقفو شامخين على سفوحهم كادوا يفقدون أنفسهم في محاولتهم في إنجاد ذواتهم من هاته الحيلة .

سيظل التنَحب على الدوام ،مصير كل بائسٍ انقلب غطاءه على رأسه فأكثر الشخوص بئْسا أقلهم إفصاحاً،فلا تستوي الشخوص المفعمة بشعلة

المحرقة،مع الرماد المتنكر في أعشاش المُشتعلة.فكثير من يسأل كيف أغدواقويا؟

إن الذي ينبش عن متوى القوة،يفشل عندما يدرك أنه لا توجد قوة على إطلاق بالمعنى الذي يريده،والذي تخيله،إنه ينازل إحباط بكل إخلاص قبل أن يرَدَّ نحو ما كان عليه من فشل،وما يكون عليه من إندفاع هو القوة ذاتها المفتقذة في تلك الأحجية الصامتة،فإندفاع المرء برغبة من عقله هو قوة هائلة تجد نفسها مكبوبة إلى الأمام متجاوزة كل الغرائز الصبيانية.فلكي تبني شخصية قوية. ماعليك إلا أن تعيش عزلة قاسية وآلاماً أشق وخيباث قاهرة لترى في أخير أن شخصيتك من تبقى ومن يفنى في أخير،ولا واحد ممن ينصحونك بإستسلام قادر على لمس ألمه حتى. فالناس تعيش بالخيبات وتموت بها إنها أصدق السموم لداغة فيمن استهلكوا نصف الجيل الراهن فلا تستوي الخيبات التي بها يراد القوة وأخرى التي انكب أصحابها نحو أجراف محاولين إنهاء أشواطهم البائسة هؤلاء المحبطين لا يصلحون اللبثة لإعادة التأهيل.

إني ورغم كل هدا التفاني في تقشير هاته البصلة المهترئة لا أزال على يقظة أنه ورغم كل ما يرغب إنسان في أن يكونه سيظل تابعا لشيء ما ،او لشخص ما وربما لتاريخ ما لماضي قبيح حتى فالمهم أن نبني من أنفسنا شخوصاً تليق بهذا العصر وتليق بنا حتى،فكم هو مُخْزٍ أن نطأ رؤوسنا تحت أرجلنا لحقير،فقط لأنه يزودنا بشيء ما ،أوأن لأخلاقنا الفضل في أن نبقى محبطين طوال الوقت،بدعوى أننا نجهل

العادات،ونلطخ سمعة جيلنا بالوحل،إن هاته الطرق الماكرة التي أنجبها أوغاد ليبقى الناس تحت أجنحته،لألا يقوم أحدٌ بإمتطاءه علوة

إني أبداً لا أقدم نصيحة،ولا أعتبرني أكتب ما قد يصفه البؤساء بالتنمية البشرية!

فمعنى أن أبدل في نفسي ما يلطخ أحشاء حشد من الناس،بإلقاء موعظة بالية،تحط من قيمة إنسان،فالمرءُ دائما ماعليه أن يفكر بأنانية،وألا يفرط في أن يكون أنانياً،كن أنانيا في بناءِ نفسك والعلو بها،إجعلك تُنَاوِل المحبطين قدراً من الهمة ليشتد حيلهم ويرتد بطشهم،فيراوغون من الوقوع في فخ الضياع وسهو النذم.

فأبدا لا يعني النذم أن يكون إنسان على خطأ،فقد يكون على صواب ولكن بيئته تَعَوَّدَتْ على إرفاق الخطأبالصواب.

إن النورس الذي تراه يطير بصوته الباعث الى إلقاء نفسك في البحر،ممتطيا كل الموجات نحو العمق،لهو أفضل مِمَّنْ أعرفهم لا يستسلمون لخيباتهم ولا لفشلهم في إلتقاط أسماك،إنه يباري البحر في معركة ينتظر منها أن تنتهي بخاسرٍ مضجر،وألا يكون هو طبعاً،فكلما زاد تحليقه فوق أمواج كلما علت فرص إمساكه لإحدى أسماك الغبية،إنه يأبى الخسارة ،فلو رأيتموه كما رأيته لأردتم مثلي التحليق في سربه والبقاء بالجوع طوال اليوم ليصطاد عشاءه عندما تبدأ بعض أسماك بالوقوع في الفخ الدي تأتي به أحلام اليقظة،فلم أرى قط نورساً منتفخ البطن ينتظر ليحضر له نورس آخر الطعام كإنسان هذاالعصر

البغيض.إنه كسول فلو أراد شيئا،لصعقنا برغباته المهجورة،تلك الباعثة على القرف.إن أفضل ما أجاده هدا القرن هو إنجاب أقدس المحبطين ذناءة،نعم أولائك الذين يُبطِئُون في إفساد الحفلات،بِعبوسهم الذي لا يحتمل،بمجرد أنهم أخفقو في رقصة البداية ،لنظل نعاني طول السهرة.أمثالهم ما يقفون على رأس كل سِرب ينتحبون لفشله القادم،بمنتهى الخجل يحبطون كل السرب ليكونو على راحتهم المعتادة.فأول درجات القوة أن تنفرد لوحدك دون سربك من ثم تبدأ ستتعلم ما تتطلبه القوة؛فإكتساب شيء،يتطلب فقدان آخر،وأبسط ما يخسره المرء يبدو في أعين المرء فاخراً لوقت يتجرعون منه ندامة كل داك إهتمام المنسوب اليه،فليس على إنسان أن يبدد كل إهتمامه في أشياء لا معنى لها،دون أن يجد له مصبا ينقذه من بعثرة هذا الوجود،مكانا يجد فيه كل حطامه حيث يستعيد منه كل بقاياه ليبني نفسه من معدن يصلح لقهر الألم،فالمثير للإشمئزاز من يجلس منتحباً لألم يكاد ينط من بين هيكله المهترئ.

وقف الرامي ينظر للهدف،بل يكاد يصيبه بعينيه،إلا أن هذفه كان أنثى،وما كان يجدر به إخفاق وإلا سيموت موصوما بالعار،معلقاً على حاوية قمامة،وقد كان ملكُهُ من أمره بإجتياز هدا إختبَار،فإن تمكن منه نال حريته وتحرر من العبودية،وإن أخفق عُلِّقَ على حاوية قمامة الخاصة بالقصر،وقد نجح الرامي بإصابة الهذف،وقد عُلقَ على شجرة القصر،يرشقونه بالحجارة ليلا نهاراً،فبدل أن يصيب الهذف أصاب إبنت

الحاكم،فأوقعها في حبه،فلا فرصة لعبد في حب أسياده،وقد حَرُمَ على العبيد النظر الى أسياد،فقد كان يَدعُو أن يصِيب الهذف كي لا يُعلَّقَ على مِكبِّ النفايَات،ولكنه لم يدْعُو لألا يُعَلَّقَ على الشَّجَر،إنَّ سوُءَ النَّوَايَا ما يضعف إرادة الذات،بل يجعلها متخاذلة أمام نفسها،ليستحوذ عليها إحباط،فتصبو الى إنحطاط علوة ذون وعي.ومن ثم يولد المحبطون،ينقبون عن القوة في هذا العالم،بفكرة زائفة في عقلهم الدي تَعَوَّدَعلى إيجاد السمك واقفًا على الشاطئ ينتظر شبكة الصيد،فالقوة لا توجد،ولكن فكرة القوة موجودة.

إن الشُّعور بالقوة مَحضُ كذبة،خُدعَةً مفْعمة بالحَماسةِ،الكل يظنُها شيئا إيجابياً ولكنها في الحقيقة مرضٌ خبيثْ يتودد الى الأعماق من الأصابعْ حتى يَبْلغ القلبَ لِيهْتَزَّ عَرشُ الأعماقِ،فلا تراه سوى ممدداً ينتحبُ من لاشيءْ،تلك أولا أعراض المرضِ الذي يبدأ بوهمٍ مغرمٍ بالرفعة وينتهي بذاتٍ مكسوةٍ بالإنحطاطِ.

***

الصرخة "

"كان يوما مثعباً حقاً.كل عضلة في جسدي تطالبني بالتمدد على أرضِ منتحباً لألمي ،لما أبدو فاقذا لنشاطي،فقد حاولت ألاف المرات إظهار قوتي،فبدوت أنتفخ كبالونمحمر الخذوذ،أنتظر حدوث شيء،ولاشيء حدث ،فأتأمل حدوث شيء أبداً لن يحدثْ،فإذا بخيبة تسقط من أعلى رأسي،فترسل في أذناي مقطوعة تسْمعني فيها نواح أيام.كانت لدرجة

بشاعتها تدفعني إلى حك أذناي كلما شعرت بأنها نزلت فوْق شعري.إنها تدفعني للجنون،وأي جنون هذا الذي سيحثل عقلا كعقلي.إن أسوء الناس طباعا من أوْجَدَتْهمْ الأوْضَاعُ،فلا هم يأخدون دور الصيادِ ولا يستجيبون لحتمية الوقوع في شباكه،إنهم دائماً يتنمرون على باقي الصيادين ،فلا يصيدون غير خيبات أمل المؤلمة فأن تكون إنسانًا يستلزم الأمر درجات من القوة المعتدلة المصوبة بإحتراف نحو القِمَّةِ.على ما يبذو لا أحد يحب أن يستمع لهكذا ألحان باعثة نحو النوم بماعدة فارغة،هراء كهذا يبعث الى النوم حقاً،فأي جمهور هذا الذي سألقي عليه كل ذعاباتي المملة لينط مبتهِجًا لخسارتي ،فالمرؤ دائما ما ينتظر أن يعيش لحظة من الفرح حتى وإن مات ذاك الجاهل على المسرح ،يكفي أن يقوم بفعل مضحك لتّرتفع أرواح إلى خالقها.إن ثقافة الكوميدية قد أنجبتها البطون المضطهدة لتسكت شَرِهاً عن الثورة،لربما تَلقين التفاهة قد عاد بالنفع على هؤلاء النَّشَّالينْ ،لقد أصبحو أقماراً نراهم في كل سماء بل في كل قناةْ، يبدو أمر مضحكا بعض الشيء ولكنها الحقيقة فأنا أوقن أن الحقيقة تؤلم فتبكي ولا تضحك أبدًا،فهنالك من الطباع المريضة التي تحاول نيل السعادة فتنتظر العصافير لتبسقها من السماء،وفي النهاية لا يلاقون غير تعاسة تلك الرائجة البشعة ،فلكي يعيش المرءُ سعيداً عليه أن يقتنع أولا أن السعادة لاتأتي من أحدْ،بل تأتي من داخل كل أحدْ،كيف لهم أن يصدقوني وأنا ابداً لا أجيذ إضحاك الناسْ،لستُ أحمقًا ولستُ كمن يرقص على كركرات المعتوهينْ،أنا النخلة المنصوبة بإحكامْ،أنا حقًا لا أجيذ هذه

الحماقة،فبلكاد أجيذ إغضابهم،لدى يجذون صعوبة في فهمي،وحتى أنني لستُ أبرع الراقصين ،فصوتي بشعٌ ،لدى من المتوقع أنهم لن يحسنو تقبل الحقيقة،وبتالي فهم يصرُخون كالأرملة التي فقدت زوجها ،مجرد نواح شخصي لا يهم لنسدر الستار على الأمر.

الواقع أنه في كلتا أحوال يصاب المرء بالخيباث،فلا نراه ينوح ولا يصرخ بل نجذه يبتسم ببراعة الفنان المحترف الذي أضحك فأراً قد أنتزعتْ منه جبنته،متوقعٌ من أبناء هذه الأيامِ المحرضة على الموتِ والضياعِ،

فغالبا ما يكون علينا،النفور في ما قد ينتابنا من شعورمفزع،لكن فضولنا أشعور يسرع إنما نلقاه قد فتح العلبة المجهولة،أمام دهشة طفولية مرهونة برعب مدسوس في قبو روح صبيانية،إنه هذا هو إنسان البارعِ في التعلمْ،إنه من يجيذ الصراخ وهو نفسه من يجيذ إدخال أنفه في شق كل منزلمهجورْ،فالذي يستغل فضوله بصالحِ،يجذ الأبواب مفتوحة تراهٌ يصرخ من العجب لما قد رآه،ولكن الأنوف التي تعجز عن شم رائحة القوة الصباحية،تلك الأرواح المريضة بالثرثرة والفضول المثعب ،لن تجذ لأنفسها سوى النوافذ لتنظر منها لحيوات الآخرين وما يقيمونه من عزاءٍ لأنفسهم...إن هذه الطباع الهشة،الموسوسة بالحرمانِ والشراهة التي لا تقهر أبداً لا تشبع ولو وضع كل الجيران أسرارهم أمام عتبة بابهاُ،فهي دائما تبحث عن أشياء الساخنة التي لم تبرد بعد.

عند أول صرخة لكْ،أول رنينٍ منكَ في هذا العالمْ،ستجذهم ينتظرون بفارغ الصبر لكي يصطحبوك الى المستشفى،لن يكون الأمر صعبًا مادمتَ قد صرختُ فطبعًا ستكون مجنونًا،سيدخلونك دون مساعدة وسيخرجون بلاكْ،ستعيش لأعوام وستنسى هناكْ،سيتذكرك الحفارْ،ليسأل أين ذلك الوغدْ؟ ألم يحن موعد تقديمه الى القدرْ،فجيوبي عادتْ فارغة من آخرة جثة دفنتهاَ..سيقال عنك الكثيرْ،ومن بين الكثير ستلقى القليل من سيفهم شعورَكَ ذاكْ،حتى أنا وقتُما يروني أصرخُ لأنفس عن غضبي يحضرون طبيبًا متدربًا وكرسيًا كهربائياً،لمْ أعْتدْ سوى صوتِ أحد الحمقى يقول " ما إسمي" لأجيبه وأنا على السرير " أنت المهرج الذي يجلدني بالسوطْ،تكررتْ الصدمات ،كانت أول صدمة كهربائية عنيفة جداً لم أستحمل نفسي دعوتهم ليخرجوني ويدفنوني حتى،لكنهم إشتاقوا لصرخةٍ تانية مني فصوتي جميل جداً،وكلما صعقوني زادتْ درجة الصعقة،وإنخفض تأثري بالألمْ،وفي النهاية صرتُ صخرةً يعجز أحد عن إلامهاَ،بعد أن فشلوا في ترويض العاقل فياَ أخروجي إلى الشارعْ لم يتحملوا رؤيتي وهم يضيعون وقتهم على جسدي المنتحرْ،هؤلاء اليائسين يصعب ترويضهم.لا تصدقهم حينما يقولون عنك مجنونْ،إنهم يحاولون ترويضك بهذا الأسلوب الغريب الذي به يعالج الحمقى المقتنعين أنهم أذكى من ولدوا حتى الآنْ.فحينما يرى الناسُ أن أحداً سبَقهم الى الوليمة،يغيثون خبرَ أن الوليمة مسمومةٌ لكي يُبعدَ أعين باقي الحشد من عليها،فحسد الناس أقبح صفاتهمْ وأنذلها..وكثير من الفتن تولد عن

نقص في القناعة،فلكي يجعلوا سهمك يخطئ التصويب سيلقبونك بالمجنونْ،لأنك وصلتَ لمقام لم يصلوا اليه بعدْ أو مكانٍ لن يصلوا إليه مهما فعلوا..

جاءوا في المساء ليطمئنوا على جراحي،ليروا هل خانهم السوطُ أمَ وفى بوعده في خط جسديِ،لكنهم أغفلوا أني معتاد أقسوا على نفسي بالخيباث فكيف لسوط أحمق أن يجعلني أتردد في مصيريِ،يحتاجون لخمسين سوطا على الأقل ليجبروا جسداً كالذي لديَّ على البكاءِ والنواحِ كأرملةٍ هاربةٍ،أظنني إعتدتُ الصمود حتى عاد جسدي يكرهُ إعلامي بشيءْ،نحن متفقانْ جداً فالجيد ألا يكون لك توأمُ وأكثر من جيد هو أن يكون توأمك جسدكُ الذي يعلمك ما عليه أن يفعلهُ..لم يخبرني أحد أن الحياة سيئة،ولكنهم أيقظوني بحجة الحفلة لكني وجدتُها جنازةً يرقصُ فيها الميتونْ،لستُ أدري من يكون من أيقظني ولكني لستُ شاكراً له بتاتاً..قاطع غفوتي أبدية لأنه يظن أني سأكون الفخْ الجيذ الذي سيدَسُّ في هذه إنسانية،لا يعلمون أن الذي أيقظوه ليحضر لهم سكين المذبحة سيكونُ المجرم السفاح الذي سيقْضي على كل أمل بالعودة،لستُ أدري ولكنهم يروننني أفشل مشروع أنجبته البشرية حتى الآنْ.فهم ليسوا مخطئين ولكننا جيلٌ من الساخطين قد ولدنا في زمن الغفلة،بين النور والظلامْ،بين التقدم والتخلفْ،كما يقال بين الحداثة وما قبل الحداثةْ،نحن الفيصل الغريبْ الذي سيبقى غريباً.فحتى تربح الانسانية عليها أولا أن تخفف وزنها.أن تفقذ كل أثقالها في سبيل بلوغ التقَدم،فالسمنة مرضُ

خبيثٌ يقطع حبل النجاةْ في كل مرة.لستُ أعلم ما يريدونه حقًا ولكن موقن أن كل إنسان يريد شخصاً ليجعله عبْداً،فالصداقة عبودية بشيء من الجميل ،والحبُّ أيضا عبودية من نوع آخر،فكلما كان إنسان مستسلمًا للآخرين سهل عليهم إستعبادهُ،فما إن تقع في الحبْ حتى تصبح كائنا آخر تغلق كل أبواب ليبقى لك واحد تراه جيداً يرميك إلى الجنة ولكن سرعان ما ستفتح الباب لتجده الجحيم قد أذهلك في أول الأمر بوهج عظيم وسحر مزيف لامعٍ،ستخبرني أنك وجدت الزهور في الممرْ ولم تجد أشواكْ،ولربما تقول أنك وجدتَ من هم أفضل منك براءة يقفون بجانب البابْ،حتى الشيطان بدى ملاكًا في أول وهلة،فلا تخدع بمقطوعتهم الموسيقية،ولا تَثِقْ في ممرهم ذاك،فغيابُ أشواك هو غيابٌ لزهور وكل ورد بدون أشواك هو حثما فخٌّ عابثٌ ينتظرك لتصل إليه بفارغ الصبر،فإياك أن تكون الفأر البريئ الذي يصدِّق أن قطه العزيز سيناوله الجبن عن عزّ خاطرْ،الذي يقِيم مأذبةً على شرفك لن يكون في قلبه وِدْ،فأكثر الفخاخ شهامة تصنع بأرقى الأذواق.فتظهر كأشياء جميلة يستحيل الشك فيها...

ماذا قالوا ؟ قالوا عني الكثير،فإن إستمررنا في البقاء منشغلين بثرثرتهم لن نقيم لأنفسنا شيئا،فأغلب من تراهم ينسجون القصص عنك،لم يفعلوا في حياتهم غير دسِّ السمِّ في حياة القناديل المفعمة القوة،فدائما سترى هاته الأمراض تتخلل كل جسدٍ وكل حياة،إنها تجلٍ واضح لطباع المسمومة تلك التي تعيش تحت وطأت حسدها وخبثها وفضاعة

عيشها،فالناس الذين يلقون النفايات" الفتن" في حياة أحدهم،لا يبرعون سوى في هذا الأمر،فعيشهم يتوقف عنده وينتهي به،إنهم أسْفلُ من أحبطهم الزمان فصاروا يريدون إحباط كل من يعتلي هظبتهُ.حينما توقفت فوق سفحي أرى نفسي من بعيدْ كنملة صغيرة سيدعسها عِملاقي،لقد كانت جميع أدوار ملكيِ،وأنا من يمثل كل أحدْ،فلم يكنْ يهمني من يبتاع لي الجحيم بفتنه ولا من يريد نجاتي،بقدرما أحببتُ امتطاء ظهر داك السفح المرعب الذي يخرجني من كآبتي كلما زارتني زُرتُهُ فاستأصلها بكل براعة،الطبيعة طبيبُ أبرع من كل أنسانْ،فهي دائما ما تستمع لنواحك وبقاءك دون أن تسألكلماذا ؟ هل..الخ..رأوني على السفحِ مكشراً على أنيابي فظنوا أنه الخلاص بموتي،ولكنهم لم يروا ما خبأته الطبيعة بذاخلي،فكلما شعرتُ بالهلع أرتاع السفح،فأصرخ بقوة الأحمق الذي أعجبه المنظر،كان فعلاً غريباً بعض الشيء ولكنه دواء أفضل لكل ذاتٍ تملك حطاما بداخلها..

سمعوني أصرخ في وجه الطبيعة،فصِرتُ دُعابتهم في كل ليلة،لقبوني بالمجنون فقط لأني صرختُ مثله على السفح،ظللتُ لأيام أعيش على نفس الدعابة،أوه هذا هو مجنون السفح...لا لا مهلا كاد أن لا يكون هو...إنهم لا يعلمون أن ما رميته من أعلى السفح كان لغما مميتاً لو رأوه لأحبطت أنفاسهمْ،إنهم يريدون إبقاء الألم في الرواق ليهدؤا من روعة آلامهم وإحباطهم البشعْ،فحينما يرى إنسان شخصا أفضل منه يحسده ويغتاله ليفسد ما أصْلح فيهْ،بل الأمر يشبه تلك الدمى " زومبي" التي

تتأثر بفيروس غريبْ ليصير إنسان دمية بشعة تنقل المرض لكل بشري تجده أمامهَا إنها لن تبقي على أحد،إنها تخبرنا بطبع مريع في البشرية وهو الحسدْ.إنه مرضٌ ليس له أعراضْ لكنهُ يفضي الى الأسوء دائمًا،لا تصاحب أحداً ولا تنتظر حسنة من أحدْ،فالبشر حينما يرون ما يفوقهم في شيء فهم يستعدون بكل خفة لإفساد ذلك الشيء فيه،فاليوم تراهم أصدقاءك وغذا يضعُون لك السمَّ في الأكلْ،الصداقة في أعماقها إستغلال لدوي الإرادات المشلولة.لزلت أذكر صديقي الوغد الذي ألبسني تهمتهُ وراح بين الحشد يرقص عارياً بنواياهُ الفاضلة،لم أقرف بنفسي أكثر من ذاك اليوم الحقير،فقد صار يباغثُ الحمقى فيرسم لهم صوراً عني في خيالاتهم،تحمل سموماً بشعة حتى على شخص حدوديٍ مثلي..رأيتُهُ يلقي السمْ،فتركتهُ يلقيهِ،فلم يكن شيء ليجعلني أقف معانداً حسده المريعْ،إلا أؤلائك الأنذال دوي الياقات الصفراء المزيفة التي ما إنْ تراها حتى تفرحَ لمثل هذا السمْ،فقد يستطيع إعادتهم الى لونهم الأصلي،المفحم بالسوادْ،فليس غريباً عن الجرذان أن يسمِّموا فأراً فقط لأنه لا يأكل من الخرذة،فأخطر الناسِ ليس من تراهُ منحرفًا بل من يتستَّر على هذا إنحراف بوجهه الفاضل البريئ،إنه كتلك الحقيبة المرعبة التي تحمل أطراف أحدهم،حينما تفتحها تلعنُ يَداكَ قبلَ ذاك الأحمق الذي أرسلهاَ،الإنسان الحسود هو كائن يظن أن إنسانية أنصفت الكلْ وظلمته هوُ،أن الحياة بائسة لديه وكل من حوله يعيشون الرفاهِ وهو يعيش كامل الشقاء،إنه أكبر خطيئة أنجبتها الطباع المريضة،فهي ترى ما بيدِ الناسِ

وتتـركُ مـا بيدها..لقـد صـِرتُ أحمقاً حينمـا ظننـتُ أن قشـة مثلـي سـتحرقُ عشـباً بأكملـهِ،ظننتُ نفسـي قـادراً علـى منازلـة الحشـد بصـراحتي وصـراخي الفكـري ولكنـي تفاجـأت أن المسـتنقع حيـثُ أعـيش لا يوجـد فيـه غيـر الأبْـكمِ والأعمـي،وهنالك شـلة مـنهم قـد إخـتلط علـيهم الأمـر.إنهم يتـرددون فـي شـل حركتـي فـأغلبهم حـاول إحبـاطي بـداعي أن صـوتي بشـع لا يرقـى علـى الصـراخ،وهنالك مـن قـادني حيـثُ تقـاد تلـك الأرامـل التـي تنـوح لفقـذان زوجها،لـدى لـم يكـن ليرضـيني القـاع بقـدر مـا تُيّمِـتُ بالسـفوح،بالمرتفعات الشـاهقة،إنها علاجـي المفضـل لسـخط الحياة،فبـدل أن تصـادق وغذاً،صـَادقْ سَفحًـا،أو مَـكانًا تجذُّه مرتعـاً تنـتعش فيـه نفسكَ فهـو دائمـا مـا يقبـل بـك وأنـت فـي أسوء حالاتكَ...

إنـك تجـَاذل أحمقًـا،وليس الـحمْق فـيمن يصْـرخ فـي أعاليُ،بـل مـن يطـرقُ كـل البـابٍ يـراهُ مَـرتعًا ليـنفس عَـن غبَـاءه،إنه حيـثُ يقبـعُ البسطـاءِ ذويْ الـهياكـل المرتعشـة تلـك التـي تبـدوا كـذلكْ،فهم دائمـا مـا يصـرخون فـي الظلمـاتِ فيبـدون فـي النهـار أقويـاءِ يسْـخرون مِمـنْ يَعتَـلي هظـبته،كمن يفقِـدُ شُعْـلتَهُ فـي النهـاَرِ فيُشْـعلُ شـمعة تعَوضـهَا ليعطـي إنطبآعًـا جيـذاً بصـلاحه فـي كـل شيءْ،لسْـتُ أرى مـا يرضـي هـذه إنْسـانية غيـر نـواحِ أرملـة هاربـة مـن مصـير العـدمِ،أو يتـيمٍ مـرتكنٍ فـي زاويـة أحـد الشـوارع المهجورة،تلـك التـي تُـصَرفُ اليـتَامى فـي أرْجـاءِ.مثيرٌ حقًـا؛ لقـد صـار إنـسان أكثـر حُـمْـقًا حينمـا أصْـبح يفكّـر بعقلهِ،كثُـرَ الجنـون فـي صـفوف الأذكيـاء وذوي العقـول المتفتحـة،وترك العقـول الفارغةلتسـكنها الحماقـاتِ

والتفاهة البائسةُ،حينما تراني واقفًا أمتطي سفحي دون أن ترتع قدماي على أرضٍ،لا تظنه إنتحاراً ولا تخلصاً من العدمْ،لكن قِفْ مكاني واصرُخْ مرةً في حياتكَ بكل قوتكْ،لتنهبَ من العظمة ما نهبتهُ،ولترى لما أتواجد في السفح كلما زارتني الكآبة واليأسْ....تفقدْ نفسكْ،وإن ظننت أن ليس هنالك مرتعٌ يأويك فأنتَ على خطأٌ،جرّبْ أن تعيش في الطبيعة ليوم واحد،لترى نفسكَ بعيداً عن الحشْدْ..

فيِ كل مرة كانَت إحدى القرى تشكوا منْ شخصٍ يخرج في الليل فيصرخ طويلاً،فيضع ملاحظات على باب كل منزل ثم يعود للنومِ،كالسكير الذي لا يتذكر سوى صوت الزجاجة فوق رأسهِ،فكانوا يَشُكُّون في أحد المجانين الذين كانوا على الدوامِ يصرخون نهاراً بأقوال مرعبة " الجحيم في الانتظار يا ناسْ لا تدَعُوه يضجر،فضجرهُ قبيحُ كوجههِ"، وكثيراً ماكانوا يقولون " الجنةَّ لمْ تصنع للكسالى،فإعملواُ قدر ما إستطعتم"،ظلَّ الأمر على حالهِ لأشهرْ،وكانتِ الملاحظاتِ شتى على أبوابِ ،واحدة تختلف عن أخرى،تقول إحداها " لا تساومُ طفولة الناسِ على مراهقتكَ،فالصبى يمر والسكاكينْ تبقى"، " إخلاصُ الناس قلما نراهِ وأكاذيبهم سرعانَ ما نشعر بها "،"وُكُتِبَ على باب أحد الرجال الذين كانوا يسخرون من ذلك المجنون "لا تُسِيءَ لمنْ تراهُ أقل منكَ عقلاً،فمنْ يدري كيف سيكونُ حالكَ في المستقبلْ،فقد يحين دورك لتُنْصَبَ على رأسِ الجنونِ،فيسخروا منكَ..." لمْ يكُنْ لأحد أن يعلم هوية هذا الإنسان المجنونْ،ذات يومْ لاحظوا أنه يصرخ يومي السبتِ

والأحدْ،وباقي ايامِ عطلة،فقرر بعض الأذكياء منهم نصب فخٍّ لهُ،بوضع حارسٍ أمام كل البُيوتِ،لكنَّه لمْ يحضر أنذاك،لربما كان مريضاً أو أنه قد تخلى عن موهبته،وفي اليومِ التالي جاءهُمْ شابٌ في الثلاتينياتِ دو بنية عضلية قوية تراهُ سامراً في السماء،كالمسمار الذي يصعبُ ضربه،فالتَمَّ الحشدُعليهِ بقوله أنه وجدَ صاحبَ المقالبِ تلكْ،فقصدواُ منزلهُ وصاروا يرشقونه بالحجارة،وحينما إنتهوا، اقتحموه بأحقية الغضبِ في إسترجاع نفسه،فلمْ يجدوا شيئاً،المكان مهجور،ركامٌ من الحجارة،أوراقٍ متناثرة في كل مكانْ،تحمل جملة واحدة لكل واحد منهم ' أحمق' ،لقد كان هذا المجنون ذكيا في استدراج أهل القرية نحو فخه بكل براعة، فوقف شاب الثلاتيني يقول : ماذا تفعلون بحق السماء؟ أرأيتُم وحشاً فغزوتموه بحجارتكمْ،ولو رأيتموه فعلا لما فكرَ أحدكم في ذلكْ،فماذا فعل هذا الإنسان ليلقى سخطَكمْ ؟

ردت إمرأة :لقد سرقَ حَرمَ بيوتناَ...وانْتزع النوم من عيوننا....

صعد الحشدُ الى المسرحًيصرخُ " اجل معها حقٌ " نعم طبعا إنها انثى سيكون معها حقْ..فقال رجلٌ عجوزٌ يقاربُ الثمانينات " لقد يئسنا مما يقولهُ،فحتى وإن كان يقول الحقْ فلا يعني أننا نحب سماع الحقيقة ابداً فيوما ما سيخبرونك بالحقيقة،والمعنى الأصح الحقيقة التي يريدونْ وليست الكائنة طبعًا،فإحترسْ من أن تكون النعجة التي إستدرجها الذئب الى وكره عن طريق عشبٍ مطاطيٍ مزيفْ....فصرخ الشاب في وجه

الحشد قائلا : هذا أنا ،إني المجنون الذي ظننتموه مجنوناً،أنا من كان يعلق ملاحظات على رأس بيوتكم المنهارة،فاقتصوا مني ما أردتم...

فقالت المرأة مندهشة:اووه.... لمَ فعلت ذلك ؟

رد الشاب :لقد رأيتُ فيكمْ مرضاً خبيثاً ليس ككل مرضٍ،إن كل ما فيكم ليس شيئا تحسدون عليه،وكل واحد منكم يظن نفسه ضحية،لربما تشعرون بالسخط مما أقوله ،ولكني لمحتُ فيكم نقصاً حاداً فلمْ استطع قوله إلا بالكلماتْ،بشيء تستطيعون فهمه دون غضبْ،داخل كل بيتٍ يوجد مرضْ،وأنا لستُ سوى من رآه ولستُ معالجه،لدى فضلتُ أن أخبركمْ بشيء يحسن من حالكمْ..فليسَ المجنون من تراهُ يصرخُ كل ليلة؛فها انذا بعقلي ولكني أصرخُ كالمجنونْ،فليسَ الصراخُ سوى دواء لتلك الأرواح المملوءة بالحطامْ،فلكي أتخلص من نذمي ويأسي وكآبتي أخرج ليلا فأنفس عن نفسي صرخا في وجه النجومْ والكواكب لعلها تسمعُني،فالإنسان أصّم بطبيعته.(أناني)

إبتسم العجوز وقال :حتى الرعاع صارتْ تريد ان تعلمنا ما الصح وما الخطأ،ألستَ صغيراً على كل هذا يا فتى ؟ أظنك اخدت وجها كاملا لدى تبحثُ عما يصبغه بالنور،فلم تجذ غير بيوتنا الصغيرة....

فقال الشابْ : ليسَ مني لكم غير الأماني،إني لستُ اريد غير الصحة لكل من اراهم حولي،إني أكرهُ أن اعيشَ وسط المرضى فأكونُ عليلهمْ،وإنْ كنتمْ ترون فيَ مكذبًا،فبعد أسبوعين او أكثر سترون أنفسكم في

المرآة،ولن تعرفوها،هذه أولى نبضات المرضِ فيكمْ،فلكمْ العقابُ ولنفسي أرتضيه...

فصرختْ إحداهن تقول : دعوه يغاذر القرية،إني بحاجة لأنامْ فكلامه يوجع الرأسْ...فراح اهل القرية يسخطون ويلعنونهُ،وهو دون أن يقيد لسانه يصرخ في وجههمْ" مرضى" ،"مرضى" .ثم غادر القرية متجها الى قرية مجاورة لعلهمْ يجدون له مآوى،فاستقبلوه وعايشوه،فطلبَ الفتى من الحكيم أن يزور كل البيوت .فأعاد نفس الحدث معهم ولكنْ هذه المرة تفاجأ بعدم شكوى أحد عليه،بل حتى أنهم صاروا يكتبون له ملاحظات " أرجوك مُدَّنا بنصائحك "؛ هكذا ظل الفتى يرسلُ عبقريته العلاجية بشيء من الكلماتْ،ليوم خرج لهمْ من بين الحشد قائلاً ذاك أنا،وهم متسائلين عن هوية هذا الطبيب السحري الذي يداوي عبر الكلماتِ،فأسكنوه في افخم البيوت وعاملوه أفضل معاملة،وصارتْ كل مشورة منه وإليهِ،فعاشت القرية في سعادة لمْ تكن لتحلم بها،وكل يوم كان هنالك احتفالْ،وفي أحد الأيامَ جاء خبر أن تلك القرية التي كان فيها الشابْ قد غزاها مرض خبيثْ،حتى أنه جعل أهلها عدائيين مع أنفسهم ومع جيرانهم فصار الشاب يحكي للقرية عما جرى له معهم(قرية اولى)....وطمأنهم من أن المرض لن يأتي مادام هنالك تآخي بينهم ،حب وتسامح وعطاء..فصاروا يلقبونه بالشيخ الصغيرْ،وصارتْ لديه قرية تؤمن بموهبته الفطرية،فتجعلها تستمر في العطاء...

" إقبل النصيحة مهما كانتْ،فقد تكونُ بحاجتها فيما بعدْ "

" فـي بعـض اوقـات يكـون علـى المـرء أن يختـار الطريـقَ السـهل والمضـبب ،لكـن بشـكه يختـار الصـعبَ والخطرْ،فقبـل أن تحكـم علـى الشـيء بصـحته أنظـر الـى الجانـب السـيء منـه،فإن كانـت صـحته أكثـر مـن سـوءه إقبلـه ،والرفض في عكسه "

ـ٢ـ

لُـغَـةُ العَـطْشَـى

مُـحْـتـرِف الرقْـص " لِكل من لا يرتع على أقدامهُ "

كيف تبدو أجواء؟

غِنَـاءٌ،ورقْصٌ باعِـثٌ فـي أهـواء ينتظـر السُّـكارَى البـارعين فـي التمَـايل دون أن تَنْفَلِـتَ أَقْـدامهمنحو أهـواءهم ،مـوطئين رؤوسـهم فـي أعبـاءهم المتواضـعة يُهَيئُون لمـن يسـكب لهـم مـن اللحـن فـوق الـجراح،باقة مـن

النــواح الغريــب حيــث تقــام كــل الجنــائز،لينهض معــذبنا المخلص،صــارخاً هاقــد عــدتُ مــن غَــفْوَتِي بعــد كــل هــذا الــسُّبَــاتِ المضْجِــر،لنحتفل بهــؤلاء البــارعين فــي النُّـــواحِ يــا ســادةً ،وأخصــــهم بالـــذكر ذاك الـــرخِيص المُـــتعطشللإنتحار،إنه لحقــا أفضــل مــن يجيــدُ تخليصــنا مــن كــل هــذا إنزعــاج بملامحــه العبوســة،فحيث نــراه نــدرك أننــا أقــل بؤســاً منــه وأكثرنــا خلاصــاً مــن كــل هــذا الخَــرَفْ.إنها البراعــة حقا،تولَــد فــي أقْــصَى الشَّدائدِ،حيْثُتُشْــحَنُ الإرادات المَسْمومَة،بِسَمِّهَـــــــا المعْسُـــــــولِ تَتَـــــــذوَّقُهُ كـــــــل الحَناَجِـــرِالمَهْدُورَةِ.فأي حنجــرة تلــك التـــي تُــزْعِجُ آذان بغرابتها،تلــك المتفوقــة فــي الاعــتيادِ،وتلطيف أجــواء بحســها الماكر،إننــا وقبــل أي شــيء نحتــاج لمــن يزعجنــا بحنجرتــه العــاجزة عــن الــرقص فــوق إيقاعات،إنهــا هــي وحــدها مــن تتكلــف بصــناعة المبــدعين.فلاهي تلــك النغمةالمقصــودة،ولا نحــن نصــلح للعبــث معهــا. حيثماتوُلَــدألحَـــان تَــوجَــدُ أرواح،وكــل انــدثار بــائس لا تصــلحه إلا لغـــة الموســـيقى،تلك التــــي أنْجِبَـــتْ لأمثالنـــا نحـــن الشـــعوب المُقْصَـــاتُ مــن إنســانية،فأي لغــة تســتحقنا؟وأيُّ منحــذر هــذا الــذي قــد يحمــل وطأة أقدامنا الحافية!

إن إنحــذارنا مــن نفس االسلالة،لا يبعــث إلا علــى الشــك فــي يقــين أننــا دائمــا مــا نــود أن نتصــرف بنــاءا علــى مــا ينبغــي أن نكونــه،وليس بمــا نكونــه حقــاً.ولكن ومــع كــل هــذا الشــك الفضيع،فلســنا إلا مــا يــود الآخــرون أن نكونــه،وطعم الحريــة،كما يقَــال مجــرد غــزل بنــات مصــيره الــذوبان.وحتــى مــا يقــال مــا يــؤذي دائمــا إلا بنــاءا علــى مــا وُجِدَ عليــهْ،فنحن نقــول ونســمع مــا تعودنــا علــى

إنفاقه،وإسترداده، بنفس القدر من إنتماء الجمعي،إنها للغة البكَماء حيت يحتفلون بالصمت العانس في كل أعماق قانطة.

فحقا سوء تلك إلتفاتة،هو إحدى أول نبشات قيام الشعلة لتجعل من الباقي رماد،وأي عانس لينط سابحًا في أهواء ذون أن يخلف هكذا رمادْ،مبتسما كمغدور شقَّ بطن الخيانة من فرط إحراج،إنها تلك اللغة التي تستوي مع إحباط في نفس السرير،تنتظر مصيرها المختنق في الإنقضاء،فكفانا من لغة المحبطين تلك،إنها لتبدو أنها تصلح فقط لمن يستوي على بطنه منتحباً،ساخطا على وجوده ،إنها مجرد لغة عطشى حيٍت يقبع كل الفقراء على وادٍ فارغ ينـاجون كل الُعُيون لتوقظَ نفسها من بين الجحور المقهورة،إنها لمهزلة بائسة أن نرتمي على كل وجه ننتظر منه أن ينال حقه فيما نظنه منه،آمِلينَ أن نجد بين تفاصيله ما يُصْحينا من هذا الكابوس.

على ظهر الرمال الذهبية،تحت أنظار السماء،بين غفوتي الفجر ومطر الليالي المعثمة،صِرتُ وحيداً أتقلبُ بينمأواي وسهوٌ من الرياح يخط ظهر البحر بعنف قاهر يتبلـلُ بغزارة المياه المتساقطة من تلك الأمواج الساخطة.حتى هي كادت تنسف سوالفها إحتقارا لذلك السهم من الرياح الَجاتي الذي جاء مبكراً،لم نيأس بعد ولكنه فاز في تلك الليلة بلـلً أحمقاً،ورمى بموجة خارج منزلها وكلانا نغيضهُ الآنْ.لقد أصبح المكان مقرفًا طاردًا لأحبتِهِ؛ لا أعلم هل المسرح يعلم بنوايا من يعتليهِ،أو أن الحِصَان يدْركُ ما يخفيه راكبه.لكن حتمًا يبْقى إنسان يرقصُ حتى

يحتَـــرف الغـــناءَ،فيترك المسـرحَ ليبيـع المناديـل فـــي الشـوارعْ.وينتهي بــه المطـــاف متشــرداً يجــوب الشـــوارعِ المزدحمـــة دون أن يثيــر أحــداً،منظر عــاديٌّ جـداً لهـذا الفانـــيِ المشــاكسْ،أليس المنظـر يخـص الجميـعْ،من اوصـل ذلـك الرجـل لمـاهو عليـه،ليس أنــا بالطـبعْ،سينكر الكـل الحقيقـة،الكل مسـؤول عـن نفسـهِ،حتـى ذلـك المتهـور الـذي قـدم نفسـه كأضـحية للقـدرْ،تركُ كـل شـيء لينــال الخلاصْ،إننــا جميعــاً مسـؤولون عــن حماقاتنــا،ولا أحــد يـرى الجـزء المضـطرب مـن حماقتـه بقـدر مـا يـرى منظرهـا المضـحك المثيـر للشـفقة،إن ذلـــك المتشـــرد هناكْ،سيصـــير يومـــا مـــاً متســـولاً،ليتطور الـــى لـــصِّ سارقٍ،ومباشـرة يلتحـق بسـلالة المجرمينْ،وبهـذا تكـون آخـر مرحلـة يصـل اليهـا ذلـك المسـكين،من يـا تـرى دفعـه للـرقص بهكـذا بشـاعة،ألا يعلمـون أن القلـة مـن ولِـدَتْ كـالجواري تـرقص علـى رؤوس أصـابعهاُ..إننا نثيـر الشـعلة فـــي أجســادهم المــشلولةٍ،منظرنـا غريــبْ،بعض الشــعر فـــي الــرأس ،وجــه عبـــوس مكشـــرٌ..تحت العيـــون الحمـــر أرقٌّ مـــن الســـواد يـــرتكن بلطافـــةٍ هنـاكْ...جــسدٌ،مذفئة وشــعلة تحــاول ألا تنتقـل الـــى العشــبِ،ولكنها تشـتهيه بكــل قوةْ،كأنهـــا تقـــول " أبعـــدوه قـــدر المستطاع،فـــبلا شــك سأصـــل إليـــه يومًـــا.الجوُّ محبطْ،والزهــور عقيمـــة،الكل ينتظــر مـــن الكـــل فعــل شـــيءْ،ولا أحـــدَ يريــد الصـــعود الـــى المســرحْ،مهلاً..هاهو ذا واحـــدٌ يعتلـــي ظهـــر هـــذا المسكينْ،هل تــراه مــن الســاخطينَ،أم مــن الصـارخينْ،كلاهمـــا مـــن العطشـــى والفـرق الوحيـد هـو نـوع التعطُّشِ،فالـذي يـتعطشُ الـى الأمــانِ لـيس نفسـه مـنْ يتَعَطَّـــشُ للتقــديرِ والإمتنـــانِ،حتـى وإن كـــان بينهمـــا خـــيط رقيـــق إلا أنـهمـــا

منفصلان تماماً كالزيتِ والماءِ.فمن يشبعُ أمانهُ يتعطشُ للتقدير...إن أكبر جريمة قد إرتكبتها الإنسانية ولتزال تقترفها حتى الآن هي بخلق أولائك الحمقى الذين يعيشون تحت أنقاضهم البائسة ،هؤلاء من لا ترتع أقدامهم إلا حيثُ لا ينبغي أن تكونْ،مثيرون للإحباط بشيء من اللطافة الغزلي،الذي يدفعنا لنستجيب ذون أن ننظر الى حالتهم المهدورة،ليس القبيح فيهم أنهم يمشون على رؤوس أصابعهم كراقصاتِ البالي،لكنهم أبدا لايفقهون في المشي شيئاً تراهم كتلك الفراخ التي تحتضن أيَّ ركنٍ لا قدرة لها على الوقوف طويلاً وبين الحَشدِ تنطُّ كسنجابٍ تعلم الرقص على الأشجارْ،هكذا يصير راقصنا محتالًا قليلاً أمام الحشد راقص محترف وخلفهُ بطة لا تعرف كيف تسبح لوحدها.... كان الحشدُ ينادي عاشْ..عاش وحينما نظرتُ إلى منْ يحيونْ،وجدتُه مُهرجًا،لقد ظننتهمْ أعقل من هذاَ ولكني سرعان ما تأكدتُ أن الحشد لا يوجد فيه غير الحمقى والمغفلينْ،من يرتكن خلف الحشدِ يجذ السبيل لتفوق عليه ومن لاقى الحشد في وجهه نالَ نبذهُ وغطرستهُ،فالعظماء دائما ما يولدون خارج الحشد،في القفارِ تمامًا،لقد إعتادوا وحدتهم وصحوة أنفسهم الجبارة،فلم يستطعوا ترك العلاءِ مهجوراً والعودة الى القعرْ،الى المستنقع حيثُ تولد كل السلالاتِ العبثية،أظنهم أجادوا إنتقاءَ سلالتهم بفخرو بجسارة أكبرْ،فالتاريخْ لم يذكر شيئاً عنهم ولكنهم ذُكِروا بفضل إعتلاءهم لهظبتهِمْ،هذا ما على كل إنسان فعلهُ،ألا ينظر الى القعرِ،بل يظل شامخاً تتسلق أنظارهُ كل المرتفعاتِ،أن يكون جشعًا في إكتساب الفضيلَةْ،لا في

طلب الرديلة. فالعطشى يستحيل أن يكونوا إنسانيينْ لأنهم بكل بساطة لا يشبعونْ،فهل السارق وإن إعتادَ سرقتهُ ليتركها يومًا ..أبداً لن يفعلْ،حتى وإن قدَّمْتَ له مال الدنيا ليظل يسرِقْ حتى يموتْ،مثله مثل التبرج وكل الصفات القبيحة الأخرى،فإنسان يحرم نفسهُ من السعادة بأبسط شيء قد يتنازل عنهُ،يبقى أمر ما نختارهُ لأنفسنا ليس إلا ..

خلف كل بابٍ توجد أرواح متعطشة للرقصِ،لسعادة،لشيء لا يقدر بثمن في ظن هذا المسكينْ،كلهم على نفس الظن يمشون برويةٍ،المفرحُ أنهم مقتنعون بصلاحهم لكل شيءْ،ما عدى الشقاءْ،فهو خارج المعادلة،لا أعلم هل هي مجرد صيحة من بين أنانياتِ مُمزقة،أم أنها نوباتُ من الحسد القاتِلْ..يبقى الكل متوقفًا على طبع المرئِ وإنسانيتهِ اليقظة...أخبرتني أن الربيع لا ينموا في الصحراءْ،أنَّ الطِباع المسمومة لا تنجب غير الحطامْ،ظلتْ تكرر كلمة حطامْ حتى وقتٍ قالت فيه أنَّ الحطام لا يترك مكاناً لشيء يصلحُ لشيءْ،حقاً كما قيل أن الطبعَ المريض يرى المرض في كل شيءْ،إننا دائما ما نركضُ خلفَ حجة أن هنالك من هُمْ أضعفُ منا حيلا لنبرر ضعْفناَ وعدم مقدرتنا على فعل شيءْ،لا تبرر مادمتَ لم تفعل شيئا يستحق ذلكْ. بدأت المسرحية بجثة تتوسد عظام جثة أخرى على خشبة أظنها مقبرة،بدى الكل مصدوما حتى من. إعتلى الخشبة،لم يرى مثل هذا العرض،لزال الوقت مبكراًعلى التأثر،الكل صار ينوحُ لم يتركوا المجال لتلك الجثة لتقوم بالواجبْ،ظل الكل صامتاًلربع ساعة على ما أظنْ،نترصد اللحظة المفاجئة لإرعابنا لتلك الدهشة التي نتوق إليها لم

ينهض الممثل ظل مرمياً على حطام إنسانه العزيزْ،لا أظنهم عظاما حقيقية ولربما تكون هيكل التاريخ ٍقديمْ،صارتْ الجثة تبكي،وبكى معها الجمهورْ،لا أحد فهم شيئاً...سيناريو لايحمل هذا المشهد بتاتاً..الممثل تذكر شيئاً،الهيكلُ بدى غريبًا والجثة لم تقاومُ الفناءْ،ظل يفكرْ لمن هاته الجثة،لمن هذا الأنا النائم فوق حطامهِ؟هل أنا حيٌّ كمَا أستحق؟ تذكرَ نعْش أبويهِ وهيكل كلبهِ الصغير الذي مات بدعسة من شاحنة متهورةفي الشارع العامْ،بدى يصرخُ،لا يكاد يغلق فمهُ لا أحد رآى دموعه والكل رآوا غيابَ أسنانهِ ظلَّ ينوحُ الى وقتٍ ملَّ الجمهورُ فلعنوا الممثل،وقالوا عنه أنه عرضٌ بالي...إنه عرضٌ فاشل لراقصنا المحترفْ،الكل يريد الحياة،والممثل كاد يكونُ هوالحياةْ،لوقت ٍظنوه ممثلا يؤدي دور الراقص الماهر،ولكنهُ إنقلبَ الى شخصهِ،فتذكر جثة والديهِ وهما في نعشٍ تنبشُ هذه الذكرى الممقوتة عقله المسكينْ،مقلقٍ أليس كذلكْ،أن تنام وأنت تتوجع من ذكرى غاذرتْ واقعك لتجذها في خيالك تنتصب بكل بؤسٍ..أظنه عقابٌ مرير لنا نحن إنسانيونْ..ناذراً ما يصاب إنسانُ بإحباط لِذكرى بشعة تولدتْ في مخيلتهِ،فكل ما في الماضي يكون جميلا حتى الذكرَيات القبيحة تصبح جميلة مع الوقتْ،لدى لا تيأس مهما طال الشقاء ففيه البلاء يصبح دواء..لقد حان الوقتْ هيا لنخلع سترتنا الواقية،تلك التي تظهرنا كإنسانيين مفرطين في الطيبة،أنا أعلم كما تعلمون أن الإنسان يستحوذ فيه على أكبرجزءٍ من توحشهِ،ليواصل تصريفه إما بنبراتٍ متوحشة أوأفعال بشعة وغالبًا ماتهربُ إحدى نواياه

القبيحة من سجنها الأزلي لتعيش سمعته أخر لحظاتها،ألم يحن الوقتْ لإفراغ السجنْ،ليدُسّ َالراقصُ السمَّ في جواربهِ فقط ليسحر الحشدْ،أظنهَا نكتة غبية،لكنها تليقُ بنا،لأننا نرى الجسدَ قبل الكلماتْ،نرى السخاء في الوجوه ينكبُّ فيضًا لايقوى على إنباتِ غير النبْلِ،ظللنا نفكر طويلا في كيف نقتُلُ الفئران والصراصيرْ الصغيرة البريئة وأغفلناَ تلك الكبيرة المتوحشة،لزلتُ أراها تنهبُ أرواحَ الحشدِ بأكاذيبهم السافلة،أظنهم أحسنوا تزيين قالب الحلوى حتى نسيوا أن ما في القالبِ سوى بعضاً من السموم ِالتي لن يسلمَ منها شابٍ صاحٍ،سيسألونْ من يكون محترف الرقصْ؟ وأي رقصٍ يحترف؟ محترف الرقص،هو نفسُه من يدُسّ ُالسمّ َفي أذواق لتصير مريعة كفايةً،إنه نفسهُ المبدع المتحنطِ بأوسمته المزيفةٍ،باهظة الطمع والانْحطاط،إكتسب كل شيء ما عدى الإخلاصَ والصفات النبيلة،هو النشالُ والنبيلُ في ذاتٍ واحدةٍ..لا تتسرع في الحكمِ على أحدْ،فهذا الراقص المحترفْ قد تجدهُ معلمًا يُطْعِمُ الأطفالهُ طعاماً فاسداً ليصبحوا فاسدينْ،وقد تجدهُ رجلُ أصل يناولُ أنباتهُ ما يوقظهمْ وينمواُ في ذواخلهمْ،كل ما في الأمر أن أحدهم ولد في المستنقعٍ وآخر ولدَ في الحقْلْ،ليسواُ إلا بقايا بيئة مهدورةٍ،فالمستنقع به جرذانٌ قبيحة ولكن السطحَ لا يروق سوى للفئرانْ،هذا الذي يميز المنحطَّ عن النبيلْ،فالأول إعتادَ سرقة النوايا من الشيطانِ،والتاني أَلِفَ الوقوعَ في فخِّ تلك النوايا محاولا استعلاءَ عن باقي قومهِ،سرعان ما ينقلبُ مثلهُ،فالذي يزدادُ نبلاً تقتلهُ عفتهُ،فيعودُ الى نفسه المتطبعة بإحباطْ،ليصبح

مثل ذلك المنحطْ ،إنها دورة شهرية لأخلاق إنسان المحرومْ.فالمحترفُ ليسَ دوما من يتنكر في البقاء نبيلاً بقناعه الجميل،ولكنه من يعلمُ متى يتصرف وكيف يتصرفْ في وقتٍ يتطلب منه ذلك،هذا إنسانْ ليسَ سيئا ولكنه مناورٌ بشيء من الخداعِ،إنه محترف بمعنى الكلمة،محترف في دس الفخاخِ لكنه أحمق في عدم الوقوع فيها،خصوصاً إنْ كانَ مُنوَمًا عاطفياً،أو موجهًا غريزياً...

الغريب "

" كيف يصير إنسان غريباً"

لَم أكُن راقصاً مُحترفًا،لكني كنتُ أجيد الحياة بكل براعة،أنتَفِضُ من جثتي دون نبيذ ببهْجة مُرْضيَةْ،أشعلُ النيران في جسدي الهزيل لن أحتاج لبِنزين ليلْتصِق بِي،كل شَيء مُتاحٌ،ما عدى شيءٍ واحدْ هو الإنسانية،الرقْصُ بمعناه الجيد الذي نريدهُ،تلك الأذْواق المجبورة على البقاء في القمة،إنها نحنْ..أليس غريباً على متشرد مثلي أن تفوح منه كل هذه إنسانية،لربما صُعقوا بالأمر ولكننا لزلنا غرباءاً على هذا الوطنْ،فليس شرطا ان تعيش الغرابة من غريبْ،وليس ضرورياً أن تنبِتَ الفضيلة لتلقى نفسهاَ،مستنقعُ ..بركة خنازيرْ لن تنبِثَ الورودَ يومًا،لا تأمل إيجاذ الذهبِ وسط الوحلْ،ولا النُبْلَ في حضيرة معتمة..أخبرتها أني على أنقاضِ خردتي..مشاعري..بقاياي النفسية المثيرةِ للرعبِ،إبتسمتْ وظلت ترمقني إنها تنتظر مني حماقةً لزلتُ أتكَتمُ على

الأمرْ إني جَديٌّ في مثل هكذا مواقفَ،فقالتْ " هل أنتَ غبيٌّ،أراك تعبثَ في الوجودِ كأنكَ شيخٌ قاسى الكثير وأنتَ مراهقٌ أخرق....أتظنه دوراً يليقُ بساذجٍ مثلكْ،إنها تسعى لإحباطي وأنا الذي مررتُ أمامها كسهم أخطأوا رميهُ،دعوتُ ألا أصيبَ الهذف،فالفشل بدى عظيمًا؛ من أن تُعَلَّقَ في جدع شجرة ميتْ،لم أصل بعد للحظة أعترف فيها بخير أحد،بل إني متيقن أن خير الناس ماهو إلا تحلية تسبقُ الوليمة بأشواط من التعاسة ،تلك التي سندفع عنها ثمنا باهضاً لو صَدقنا خيرهمْ،لدى لا تعطهم الفرصة ليمسكُوكَ منها أغلقْ كل الأبواب والنوافذ،حتى وإن ظللتَ في العثمة لا مشكلة،فقط ينبغي ألا تترك ثغرة يدخلك منها نسيم من البردْ،فبعد هذا النسيم يأتي الإعصارْ..فالذي يجعل إنسان غريبًا هو ما يعيشُ في دواخله من حروبْ،والمثير أن تلك الحروب تأتي من الخارجِ دائمًا،لدى عشْ في العثمة على أن تجعل نفسكَ مصباح أحد فيجبروك على أن تضيء حياتهم كلما أعتمها آخرونْ.ستضطر لتكون الغريب بينهمْ،وتكون الضحية التي ستقدم نفسها نيابة عنهمْ،لن يرضى أحد بالقليل الكل يريد الكثرة،طماعون بشدة حتى في القتْلِ،والتوحشّ الذي ظل قابعًا في أعباءهم لسنينْ. لستُ أغني لكَ أناشيد ولا رغبة لي في فقْذان غرابتي،فأن تكون غريباً أفضل بكثير من أن يعرفك الكثير،فأن تشبه قطًا يحكم الأحياءَ فحينما يتنازل عن حكمه لأنثاه تضيعُ كل سيادتهِ،بل هبتهُ نفسها تنتزع منه بالقوة لتَغْزهُ كل القطط المتهوّرة،كنْ غريبا لتعيشَ أفضلْ،فالمعرفة تأتي بالمصائب دائمًا فكيف لا يصير إنسان غريباً؟

أليس من المحتمل أن نرضى بهذا القدر من التعاسة في أن نكون أتباع أحدهم،حقًا لستُ أرضى بهذا الوضعْ،ولو أوجدوا لي مآوى في المريخ،فعلاقة التبعية بين السيد وعبدهِ،تبدأ بالمعرفة لتنتهي بسيادة أحدهما عن الآخر،فنادراً ما يثُور الضعيف لضعفه،وغالباً ما يسكته السيدُ بسوطهِ،كلاهما يجيد إستخدام سلاحهِ بأفضل وسيلة متاحة،فأفضل سلاح هو معرفة عدوكَ قبل أن تعرف نفسكْ،وتعرف صديقك قبل أن تعرف عدوك.غالباً ما يكون صديقك هو عدوك فقط يختبئ ببسالة في زيه الجميل،الحنُون،الوفي...حينما ستبدأ في التعرف على أشخاص وهم أنفسهم كانوا غُرباءاً فيما مضى،سَتدهش في بادئ الأمر لأوصافهمالحسنة؛ وستأتيك رغبة في التعرف على المزيد منهمْ،وبعد مدة ستأتيك العنوسة في شكل ضجرٍ قاتلٍ،وستغلِق كل الأبواب والنوافذكي لا يأتيك غريبٌ فيدفعك لبدل غرابة زائدة،ستكف عن الدهشة،بل لن يكون عليك بدلها تانية،ستعتريك أنانية مفرطة،لتجذ نفسك تنظر لنفسك من الداخل لتقول " هل هذا أنا؟ ستبدأ في الضحك والسخرية عليها وحينما يتوضح حالك ستبدأ في البكاء،ستربكل وضوح أولائك الغرباء دوي المحاسن الطاهرة،كجثة واقفةٍ تنفثُ شرها المريعَ في أجواء،ستنقشعُ كل أمانيك في التعرف على اشخاص جدد،فقط لأنك رأيتَ ما كانوا يتسترون عليه من قذارة،فمن إعتلى وصدق محاسن الناسِ أسقطته مساوءهم،فدائما ستراهم يشيعون الخلاصَ والنبل بصفاتهم النبيلة تلك التي لا تصلح سوى لسفح شاهق يعتليه العظماءْ،فيتناسون القبيحة حتى ينخلع الستارْ لتُكْشف

حقيقتهمْ،هنا ستنتهي اللعبة وسينتهي عرضُ فارسنا النبيلْ..لتقع الاجثمة نحو القعر مستنزفة بقايا آمالها المحطمة،لن يكون عليك بذل المزيد حينها لأنك بكل بساطة إستنفذتَ مخزون الدهشة والغرابة لأناس لا يستحقون منها شيئا،لدى ستَألَف كل شعور،سيأتيك الغرباء كالأقرباء والأقرباء سيصيرون غرباء،بذون دهشة وغرابة لن يصيروا شيئا في حياتكْ.فما أحْوجَنا لهذه المَضْجرَة حيت نألف كل المشاعر حتى تكف عن التأثير فينا،يأتينا مَنْ أتى فلا يأخد منا شيء،يذهب بدون شيء،لربما سيرحل وهو حامل غرابته بين كَفَّيْه،مادام لم يستطع أخد شيء منا،للأسف نحن الحجارة المصونة،المتكتمة التي لن يؤثر بها مجرد نهرجاريٍ، المشكلة أنها مهما قاومتْ سيلاً صغيراً من المياهِ العذبِة ليجْرفها سيلٌ أكبر،فحينا لا تؤثر أشياء الصغير يصبح الأمر غالبا ما يحتاج لأشياء أكبر وأقوى منها.لن تنفعنا الدهشة حينما يعتَرينا الندم،سنكون مضطرين لإجهاض كل طفل يحاول المجيئ الى هذه الحياة،حيلة غبية تلك التي سنقع فيها بإرادتنا فنمثل دور الغافلْ بكل براعة،لن يصيبنا غير الألم من تلك الغرابة،أتستطيع أن تعيش غريباً؟ ربمَا...أبدا لن تعيشْ،ولكنك منذ الأزل تعيش كغريب لكنك لا تدرك الأمر بعدْ،فهذا الاستعصاء هو فقط مجرد سَرابٍ يقبع فوق رأسكْ...أينالنا أم ننالهُ ؟ يَعتريني الفضول في معرفة النهاية...وفي منتصف الليلِ ،وبعد نزالٍ دام نصف ساعة سقطنا من الثعب ثمَّ قالتْ بوقاحة "أفقْ.. أفقْ يا هذاَ مَنْ تكون؟ هل أعرفكَ يا سيدي ؟ لَمَ نتشاركُ السريرَ نفسهُ أيها الغريبْ، لمْ تَرُقنِي المزحة ولمْ تكن

أصـلا كذلك،فقـد شـعرتُ أنهـا تعـاني مرضًـا،وبعد تفكيـرٍ طويـل قـذفتني بقـدمها خـارج السـريرْ،فإكتفتْ مفاصـلي ونّمْـتُ فـي أرضٍ كـالقطِ المتشـردِ،في الصباحِ صـارتْ تسـألني عمـا جـرى ولَـمَ نمـتُ فـي ارضٍ،فلـمْ أرُدَّ عليهـا ،فقـد صـرفتها بكذبـة مـا،مرعبٌ كيف يصـير الإنسـان غريبـاً بـين ليلـة وضـحاها،لدى لا تثـق فـي أبديـة أحـد،فتلك إختياراتـه المؤقتـة ومـا أنـتُ سوى واحـدٍ مـن بينهـا.ألأمر مثـالي جداً،كأن تظـل تتحـدثُ لجـدتك عـن يومـك البـائس لتفاجئـك فـي النهايـة بجملـة صـغيرة " مـنْ تـكونُ"، لا أحـدْ أكـونهُ،أنا مجـردُ صُرصـورٍ لـمْ يستفذْ بعـدْ مـن السـمِّ البـارد الـذي تبرعـوا لـه بـه منـذ دقـائق مـن صـياحه ونقيقـه،متى سـيفتعل السـمُ الصـخبَ ليريـعَ القطيـعْ،متى سنفقذ غرابتنا لنبقى عراةً لا نُـرَى لأحدْ؟

فـي العليـة لأحـد المنـازل المبتـورة مـن هـذا الوجود،مـاتَ أحـدهمْ،ولكن صـيتهُ ظـل دائعًا،لقـد كـانَ مسـناً غبيـاًيعيشُ بمفـردهِ بعـدما تركـه الجميعْ،ماتـتْ زوجتـهُ ورمـاه أطفالـهُ فـي العلية،ليرسـلوا لـه الطعـامَ كـل يـومٍ الـى العليـة كـالقط المعاقبِ،لقـد ظـل وحيداً يفكـرُ حتـى عمَّـهُ القلـق الحـاد ليصـاب بجلطـة قلبيـة قـد أودت بالمسـكينِ،والمثير للغرابـة أن كـل مـن عايشـوه نسـيوه،لقد ظلـتْ جثتـه فـي العليـة بعفنهـا ورائحتهـا القبيحـة ليـومٍ تـمَّ هدمـهُ مـع بـاقي العظامْ،لقـد أنْتُسِـيَ هـذا إنسـانْ ألـمْ يعلمـوا مـا كـان يشـعر بـه قبـل الأنعـدامْ،أظنهم أنـاسٌ سـافلون،أنانيونْ،لا يـرون فـي العـالم سـوى مـا يسـكتْ طمعهمْ،فـلا تتـزوجْ مـن تراهـا طامعـة لا تشـبع ولا مـنْ تطبـعُ فـلا ترتعْ،فالثمـارُ العفنـة تولـد مـن الشـجرِ العفنِ،والشـجرُ الجيد يلـد ثمـاراً ناضـجةً

وحلوةً.فإختيار الشريك المناسبْ هو إختيار مستقبل مرغوبْ،والغلطُ يودي الى الهاوية.

" لا تيْأس إنْ باعُوك،ولوصرتَ غريباً في نظرهمْ،فالذي يأتيكَ بمصلحته سيراكَ كغريبْ،كزجاجة كحول تُفرغُ فتلقى بعيداً دونَ حاجة لرجوع إليها،فحتى الغرابة تصبح رائعة حينما تعاشر الساخطينَ والسافلينْ،جرب أن تتركَ حشدهم،وعشْ كغريبْ حثما سيروقك الأمر .

بَقايا إنسَانْ...

ليس شَرطًا أن ترى إنسانا يتألم لتعترف بشَقاءه،مثلما هو الحال فيمن يمسكُ الأشواك فيضحكُ مُحاولا نزع التأسف منْ أولائك الذين ينظرون إليه؛ ليتفاجأوا بعدم وقُوع الكارثَة المُحتملة رغم أن كل شيء كان مجهزاً لها بكل إتقان،هاقد خاب ظنُّ هذا المقهور الذي يريد تشييد المشهد بتأسفه وحزنه المُزيفْ،لطالما رأينا أنه في أكثر المواقف يضحك الناس لتألمهم،ومَن بكى راحوا يسخرون منه،إنه مرضٌ قد أنبتهُ الضعفاء فيمن هم أَضْعف منهم حيلةً،هنَاك من أبدع الكِذْبَة،وهُنَالِك من صَدَّقَهَا،يبقى أمر مجَرد تَّضْحية بالنفْس لإرْضَاءَالآخَرِين..لستُ أعلم كيف يفكرون هؤلاء،لكِني عديمُ إخْلاص في نفْسي،أبكِ حينما أشاء وأبتسِمِ عِندما أريدْ؛ لا أخضع لرأي الآخر بتاتاً،فمن أخذ برأي الناس ماتَ بنَواياهمْ. فأن تعيش وسط الحشد لا يعني أنك قوي،أو من يناول مشعل الحضارة بقدمه،فالعيش وسط القطيع ليس صعبا فحسبْ،بل أن

تتركَ المجال لآخر،فتنصِّبه على رأس قراراتكْ،كأن تعْطيه جزءاً من أرضك فَيَّبدأ بالزحف على الجُزء الآخَرْ،يبقى الزمن هو الحكم في إظهار النَوايَا،كانت جيدة أو سيئة.فغالباً ما ييأَسُ إنسان ليس لفشلهِ وإنما لما قد يبدو عليه أنذاكْ من إحباط موسوم بنظراتِ الآخرين الموسومة بالسخرية،ماذا لوكُنا مجتمعًا يشجع محبطيه،وفاشليهِ،يساعدُ مبدعيه ويطورُ كفوئيه ؟ ينشر قيم المبادرة قبل المقابل يكفي أن يكون واحداً من كل هذا ليتقدم المجتمع،أي مجتمع نحن ؟

نحن من نلقى الأشواكَ بالورود فنغرسُ مكانها ألف لغمٍ ولغمْ،نحن مجتمع نرى في العادة السبيل والمخرج لأي مشكلة،نحن من نطمر مبدعينا تحت رحمة إقتصاد فأصبح الفن بأكمله سلعة يتاجرون به،مرةً سألتُ أحد الهواة كيف لي أن أكون فناناً ،فأجاب " عليك أن تختار المجال الذي تريدْ،وتدفع بعض النقودْ لتعلمِ الفنْ "،كنتُ أظن الفنَّ هو موهبة فطرية في إنسان،ولكن هذا إنسان قلبَ كل أفكاري،أليس موحشًا أن ما كنا نصلهُ بصعوبة كبيرة،صار إليه الكل بسهولة دفع المادة؟ كيف يساومونَ شيئا معنوياً كالفن بالمادة! حقًا أحرجوني حتى فكرْتُ في صناعة متجرٍ وعنونتهُ ب " بيع جميع أشكال الأفكار وبأثمنة مناسبة" .أحمق هذا الذي أخرج كل شيء ليبتاعه الآخرينَ،فكيف تأمل أن لا يبيع شرفه يوماً ما! إن من يطير فوق الأشواك لن يسقطهُ غير الثمن الذي سيبقيه محلقًا كي لا يولد الألم في أحشائهِ،فإياكَ ومساومة إنسانيتك مهما جرى،فمن باع كل شيء لم يعدْ أيَّ شيء.

سمعتها تقول " لا يهم إنْ فُطِر قلبهَ،فقلبه من الحجر لا يُفْطَرْ،ففَطَرْتُ قلبها بكذبةٍ،فَصِارتُ لي ضحيةً ،وأنا لها خائناً..يصير إنسانُ لا يحتمل حينما تنقلبُ عليه خدعته. فالسارق حينما يسْرَقْ يغتنم كل الفرصِ ليظْهَر كضحيةٍ،إنه ليبحثَ في كل ذاتٍ عن ثقبٍ صغيرٍ للتعاطفُ،وكثير هم من يقعُ في مثل هذا الفخْ فقط لأن الضحية أنثى. لم تفكر فيما بقي مني من حُطَام،بل أسرعتْ في إتصال بالاسعاف لحمل الجثة،المقبرة فارغة تحتاج لمن يسكنها.ألم تتذوقوا طعم هذه النكتة المضجرة،يبْدأ الإنسان في التعقل حينما تكف كل التفاهات عن إضحاكه،بل جهازه النفسي مقاوم لكل ما يجعل إنسان سخيفاً،إبْتسمْتُ بِخُفُوتِي رغم أن وهجي ظل هائجاً يبحثُ عن مأوى خِصبٍ يجره نحو الزوالْ،إني أشبه بتلك النار التي تنقب عن المزيد من الحطب لتبقى مشْتعلة طوال الوقتْ.فمنْ يرضيه الإنطفاءُ ؟ لا أحد منا يريد ذلك سواي يا عزيزتي،فمن أنهى فترته الحبسية وقد راقه السجنْ لن يطالب بالحرية مهما جرى،لدى فأغلبُ منْ هربوا لم يروقهم البقاءْ،ولن يروقهم مهما كان المكان حُلواً،فالأجساد الخفيفة لن تغرقها الحجارة،ستظل تطفوا على الماء الى وقتٍ يلتم شملَها مع سلالتها الرخيصة.فكما يقولونْ لتقتل جسداً إبدأ بالعضو الأصغر فيهِ،ولتدمر أمة بكاملها أفسد منابتَ سلالتها وبدورها.فالسيء في الإنسان الخفيف ليس أن دمه خفيف أو نفسيته المحترقة تكادُ تحرق القَطيع،ولكن دائما ما يبتلى الحشدُ بالمشاكل من وراء خِفتهِ،وتهوره الذي يراه كذكاءٍ يسبقُ الكارثة بأشواطْ.

بقايا إنسانية مهجورة،سنغتنم الفرصة،حينما نكاد نرمق تلك إنسانية المتشردة في ركن زاوية تتسولُ للبَقاءِ،سنبصرها وسندُسُّ فيها نكةً بائسة عن انسان هذا الوقتِ الرهيبْ،الكل سيضحك حتى تظهر أسنانه البيضاء ،إنهم يضحكون بشيء من السخرية على أنفسهم مادامت على قيد الحياةِ،فمن يكونُ هذا إنسانُ سوى خلاصة مخلوقٍ عاشَ سباتاً في شرنقتهِ،فحينما بدى الوقت ملائما تفتحتِ الزهرة وخرجتِ الفراشة التي كانتْ محضَ دعسُوقة مجهولة.لا تستغربْ حينما تجد نفسك وحيداً،فيخطر ببالك أشياءاً عظيمةً وراقية،فالإنسان يعودُ متوحشا داخل القطيعِ وخارجه مجرد قطٍّ ضريفْ.

في ردهة أحد الفصول ،حيث تقام الجنائز الشابةِ،تلك المفعمة بالطيشِ والكبرياء المزعومْ،والمغطاةِ بإنسانية باليةٍ لا تليقُ ولو لتكونَ سقفَ كل القيمَ المنهارةِ،المكان الذي قد يبيتُ فيه إنسان هذا العصر المَوبوءِ،أن يحتمي من صاحب الفأسِ الحديدي ،هروبا الى الخوفِ،الى حيثُ تصاب الأرواح الشابّة بالرُّهابِ،بالخوف من شيء مجهولْ،وما المجهول سوى بقايا ذلك إنسان المتوحشِ الذي قلنا عنهُ أنه رحل منذ زمنَ،ولكنه في الحقيقة لا يزال يسكننا ويسكن كل واحد فينا فلا نراه سوى حينما نغضبْ،كم من كذبة سيبتدعها إنسان في سبيل قطع علاقته بأخيه الحيوانِ،المهم ستبقى تلجأ إليه مهما إدعيتَ أنك قادمٌ من الفضاءِ،فستبقى تتودد الى الأرضِ ثائقًا الى نفسك القديمة...فبقايا إنسان ماهي إلا زمنٍ قد مضى ودهراً قد مرَّ على الفطامِ هذا المخلوق.في حينا العزيزْ،هذا الحيُّ

اللاتيني ذوي الطبائع المتشبتة بالزمن الرهيبْ،إنه المكان الذي تجد فيه الحاضر والماضي نائما في نفس السريرْ،توأمانْ ياعم،فكل مغربي فيه من الماضيِ شيء ومن الحاضر شيء،إنه كتلك اللوحة صديقة كل الألوانِ،إنها الكائن المرغوب فيهِ،جذابٌ بمنظرهِ ومجهول بفطنتهِ،حقا لا يزال نصف الشعبِ متكتما على بقاياهُ،والنصف الآخر أجهضها،من المحتمل أنه كاذبْ،فمعظم ماضيناَ يعيشُ فينا دون أن نعلمْ،لدى فكلُّ ما يجعل الحاضر كما هو،هو الماضي نفسهُ،لا تخبرني بأن ماضي إنسانْ ليس مهما في تحديد مستقبله وحاضرهِ،لأن الإنسان مهما تغيرتْ ملامحه،فطباعه تظل نفسها،فالجديُّ الصغير سيظل جدياً حتى وإنْ شاختْ أعضاءهُ،كما أن الفتاة التي تصاحب الذئاب يستحيل يوما أنْ تقتنعَ بذئب واحدٍ،إن بقايا هذه الطباعِ السافلة تظل في إنسان حتى يموتْ،فالخائن والمنافقْ والغدار نفس سلالة يعادُ إنتاجها،لأن الطباع المتوارثة تحمل فسادَ موروثها السلالي،فلا تثق فيمنْ يخبرك أنهُ أصبح صالحاً وصادقاً بعد آلاف الأكاذيبْ،والتبريرات السخيفة،لأنه في أول فرصة سينال منكَ،بكذبة ليجعلكَ الوحيد من بين أكاذيبه الصادقةْ.

جاءتني بعد أن نالتْ خلاصَ علاقتها المؤقتة بأناس مؤقتينْ،تخبرني بأنها تعاني أرق الحياة المفعمة بالنفاقْ،كانتْ ضحية جيذة،تشتم وتلعن الرجالَ لأن أحدهم خيبَ ظنها،وهذا الرجل العظيمْ ما هو إلا فأرٌ صغير قد أخذتهُ من سجن الفئران الخاص بهاَ،إنها تختار بعناية فائقة الشخص الذي يمكنه أن تقع عليه النكتة ويظن فعلا أنها الضحية ،سرعانَ ما تنسى الضحية ما

تحيكهُ من مكرْ،لتجد لنفسها فأراً آخرْ وهكذا تنقضي حياتهاَ كسافلةٍ لا تصلح كأمٍّ جيدة لأطفالها ولا زوجة صالحة،فإبتعد عن هاته الطبائعْ،فحينما تجذ إحدى الصفاتِ فيمنْ تراهم في حياتكْ،أغمض عينيكْ وحاول التفكير في مدى تقدمكَ أو تأخركَ،ومن همْ من تلتقي بهم اليومْ،ومن تشعر بالراحة معهمْ،لأن كل هذه أشياء هي ركائمْ نفسي هي بقايا إنسانْ.تذكر أن أصدقاء السوء يجلبون معهم السوءْ،والجيذوُنْ لا يجلبون شيئاً ما عدى صورتهم الجيدة.فكثير هم الناس الذين يحكمون على الشخص من أصدقاءهِ،فكن واعياً في إنتقاء أصدقاءكَ لأن أوصاف هؤلاءُ تجعلكَ تتخذ أوصافهمْ،فالكاذبون يصاحبون الكاذبْ،والسافلون يصادقون السافلْ،كل نوع وجد من يرافقُ،ولكن إنسان الجيد يستحيل إعتراف بفضلهِ ولا بحسن صيتهِ وفضيلتهِ،لأنهم بكل بساطة يحاولون إفساد طبعهِ الجيد،كالخروف دوي الصوف الأبيض الذي يدعوه أصدقاءه الخرفان السود السافلين الى بركة موحلةِ للعِبِ،فنيتهم ليستْ في أنهم يريدون المتعة واللعبِ،ولكنهم يسعون لجعله منهمْ متسخًا،هؤلاء قد يفعلون أي شيء لألا تبقى كما أنتَ،مميزاً،مثيراً.فكل علاقة تترك فينا حطاماً،شيء قبيحاً ومثيراً في نفس الوقتْ،لهذا يبقى إنسان يشقى طويلا مادام لم يتخلص من هذا الركامْ المحبطْ،وهم أنفسهم تقصدوا خلقه فيهِ،إنهم يريدون إفساد بركة عذباءَ بأقدامهم المنحطة التي تريد ابتلاءها بما لمْ تبتليهِ أقدامٌ أخرى.فاحذرْ من كل أحدْ،فالثقة العمياءِ تدفع صاحبها الى الندم العميقْ،لأن لاشيء حساسٌ في إنسان أكثر من مشاعرهِ،فلكي

تقتل إنساناً عليك أولا أن تخونهُ وتُبكيهِ،فتأسرهُ في دائرة الإحباط الحاد والقلقِ الدائمْ،وسرعانَ ما ينتهي به المطافْ معلقاً في إحدى الأعمدة البالية.فالإنسانُ مهما كانَ وفياً ومسالماً كلما زادت مشاقهُ ولحقته الويلاتٍ،لِمَ لا تَكنِ العكس كنْ متوحشاً كنْ منافقاً وماكراً ليحبك الجميعْ،كنْ صاحب المشاكل لا منْ تقعُ عليهِ،فهذا هو منطق الحياة،منطق عكسي تماما..

في رُدهةٍ منزلنا حيثُ تقيمُ الجثة الحيَّة،حيثُ ننامُ جميعاً تحت سقفٍ منهارْ،على بقايانا وركامنا الأبدي.كل لحظة تمرُّ كمرور أعوامٍ على جثة في طريقها لتحللْ،لقد ضحكوا فطرقوا بابنا خجلاً ثم راحوا،لقد يئسوا من كسلِ الأعضاءِ،فحتى القلبُ صار يدق مرتينْ كل تانيتينْ،لقدْ صارَ علينا أنْ نعترف بموتنا ونحن أحياء،فليس الذي يملكُ ركاما بداخلهِ أن يكونَ إنْساناً،فهذا الركامُ سرعانَ ما تفوحُ منه رائحة العفنْ،وبها استولد البغضاءُ والحسدُ،لقدْ تعطش هذا الإنسان لشيء يجعلهُ يستشعر الحياة في نفسه،أن يكونَ راضيًا عن مصيرهِ مهما كانْ،ستبقى أمانيه معلقة في تلك الشجرة الميتة التي تتمنى أن تزهر مُجددا..سيعفو الزمانِ عن المكانِ يومًا لتبدأ الفصول في إسترجاع نفسها،ويتحرر سجيننا البريئ الذي كاد يعدمُ ظُلمًا،وسيتركُ القمر مكانهُ للنجوم ليجلسِ في الأرضِ تيمُّنًا بخالقهِ..لنْ يحدثُ كل هذا إلا في حالة ظل إنسانُ إنسانًا،وإنْ إرتقى صار أفضلْ،أليسَ منْ يجيدُ حفرَ الأغوارِ في قلوب الناسِ،يَصْلحُ لسدِّها،لا أظن أن هنالك حفاراً أفضل ممنْ يعيشُ في المقبرةِ،فحتى منْ جرحَ إصبعًا

تركهُ ينزفُ،ليسَ لأنه يحبُّ منظر الدماء بل يحبُّ منْ يناذيه لنجدة.هذا هو إنساناً المتحضرْ،إنسان اليومْ.....بقايا ماضينا التعيسْ،كيف لكَ أنْ تظنْ أنَّ تعاسة المرءِ قد تُقْلبُ خلاصاً في يومٍ ما.فمنْ إعتادَ الغنى كرهِ الفقر،ولو تأصل من جلدتهِ لنكره،كُنْكران الشاب لأبيهِ....تبقى نوايا إنسان ماكرة كرُكامهِ وحطامه الذي يبقى فيه حتى يصيبه الهَرَمِ؛حتى يتحللْ ويغدو نفسَ البقايا في حياة اناس آخرين غيره....العدوى تنتقلُ والنفوس تتحطمْ،والمثير أن صخبها يظل صامتا،أبكمًا يبحثُ عمَا يجعله كذلك..رُكامٌ من المشاعرْ،حربٌ لم تخلف غيرَ الجثةْ،أليسَ خلاصاً جماعيًا،لكيْ لا تكونَ ممنْ أبيحَ لهمْ البُكْمِ،عليكَ أن تتخلص من كل حطامك ولو كنتَ مجبراً على إرساله لشخص آخر غيرك،فالبُكمُ ليسَ ان تكونَ عديم القدرة على الكلامِ هاهنا،ولكنهُ ذاك الذي سيستأجرُ قبراً ليتخلص من العالم في جزءٍ من إحباطه التعيسْ،ذاك المتهور الذي تراهُ يائساً طوال الوقتُ،أبكمُ النفسِ أخطر من ابكم اللسانِ،فالأول يدقُّ جرس الخطر بكتمانه كل ما يعانيه اما الآخر فيصرفه عن طريق شيء ما...هؤلاء هم المحبطون الذين يفسدون الحفلاتْ،هم أنفسهم أصحاب مكبات القمامة النفسية التي تشعرهم بشيء من القرف ،يريدون إشعال النار في كل شيءْ،رضاهم مجهولٌ،وغير الرضى كله مباحٌ،فلا تصاحبْ منْ تراهُ منتفضاً بركامه لأنه بالكاد يستطيع التحكم فيه،فمادامت المشاعر السلبية والأحاسيس القبيحة،وكل ما يبدو للعفنِ كأخيه ،صامداً في أعماقه فلنْ يكونَ إنسانا صالحاً،لأنه في يوم ما سترى أن كل هذه الخردة (

مشاعر السلبية،افكار سلبية)ستتحول الى حسدٍ وحقدٍ وشرارةٍ منها ستعيشُ انسانية فيه آخر انفاسها،فصاحب القلب الأسود مصاحبته باطلة،فحتى التعامل معه يتطلب الإحتراسْ،فهو فتاكٌ جداً في لحظات الغفلة.إنيّ مُتيَّمٌ بالشخوص البيضاء كالثلجِ،التي لا نرى فيها بغضاً ولا حتى سواداً،إنها أفضل من يعطي الحبْ،والصداقة وعيبها الوحيدْ أنها تتعاملُ بلامبالاة،قلبها كبير يتسع للملايينْ.

-٣-

اين نحن من الإنسانية ؟

لا يزال علينا أنْ نعيشَ وقتنا،اللحظة التي نرغب فيها والتي نتوق اليها بكل حرية،لأننا نستحقْ،فكما نستحق السعادة والرفاهية،فإننا لا ننكر ثعبنا وشَقاءنا،إن كل إنسان مهما بدى لنا ثائرا على نفسه في لغة القوة المزمنة فإنه بالكاد يتعرجُ كذلك الهرمْ الذي ينتظر الفرصة لِيَنْسلَّ الى قبره فقد يأسَ هذا الإنسان من وقوفه،إنه يحتاجُ لغفوة أبدية تفرغُ ثعبه في الأرض. فلا تخبرني بأني قد أموتُ حسرةً،ولا بأني سأعدمُ غفلةً،لكن أجبرني على العثور على نفسي،ففي النفس توجد الجنة....وأين قد تكون الجنة في نفس تثوق للإنسانية ؟ لا يمكننا أن ننتظر من المحبطين أن يتسلقوا جبلَ الرقاءِ،وان يتخلصوا من تقل ذماءهم المخمورة،شكلهم شكل أولائك الرعاة الذين يتركون كلابهم تحرس كل القطيعْ،إنهم يثقون أكثر من اللازم في غريزة حيوانٍ مقيدةٍ،أتراه إنْ غفلٍ الراعي استدرج الكلبُ نعجة من بين ما لديه نحو بطنه الجائعة، إنه أشبه بالطفل الذي يبيع الحلوى في دكان أبيه،ليسَ أميناً على حلواهُ ولا أظنه سيمتنع عن سرقة بعضهاَ،فهل سيكتشف الراعي خيانة كلبه،وضياع نعجته،إنْ كان إنسان

هذا الوقت السحيق بالكاد سيفعلْ،بل سيندد بجوع النعجاتْ وفقر دماءها المقهورة فهو دائما ما يرى النصف الفارغ من الكأس،يرى الكرة الضائعة في جسد مليئ بالثغراتِ،هذا الكائن المجنون الذي يدقق لتفاصيلهِ النقْذية أكثر بكثير من مهووسي التفاصيلْ.يا له من سؤال مفضل ' أينْ نَحنُ مِن الانسانية ؟ مأْزِقٌ غريبٌ هذا الذي وقعنا فيه على رؤوسنا،لنتأمل لبرهة حالَ هذا الإنسانُ المقْصي من إنسانية،هذا المخلوق العجيب،المرعبْ الذي صارَ يقال عنهُ إنسانُ راقيٍ،هذا المُتَخَمِّر المرهونُ في بقاياه المتوحشة،ليسَ غريباً أن تجذهُ متأنقًا في عباية الآخرينْ،او متخفياً في زيٍّ راقصة حسناءْ،المرعبُ في إنسانْ قدرتهُ على التغير السريعْ،إنه كالحرباء التي تشعر بالخطر كل تانية،مزاجية بشيء ما غير معروف قطْ،إن العيش في إنسان لمدة طويلة يبعثُ في الإختناق كمن ينتظر من دجاجته العاقر أن تبِيضْ،هذا هو إنساننا،فلكيْ تعرفَ الإنسانية عليكَ ان تنظر في وجه شخصياتها ممتليها وكوميدييها،وعباقرتها وتافهوها وحتى أحمق فيها،عليكَ أن تزورَ جنازةً لميتٍ مجهول لترى إحساس الفقيذ من الغرباء،وأنْ تحضر فلما سينيمائياً غريباً لا تفهم لغته لترى النفوس الآخرى في نفسك،والمهمْ أنْ تحضرَ حفلاً دون دعوة ،لستُ أريدك أن تخرق كل قوانين الحياة،ولكني مرغمٌ على جعلكَ تفعل مالمْ تفعله من قبلْ،لأن الإنسان لا يعلمُ شيئا إلا حينما يجذ نفسه في وضع يجبره على تجربة كل شيء،لدى كُنْ مستعداً لتجربة مالا يخطر ببالكْ،لأن هنا يجذ الشغف نفسهُ،ويصبح إنسانُ راقيا بشغفهِ،لربما تسألون

عنْ مكامنِ الإنسانية فينا،إنها أخلاقنا وقيمنا،فضائلنا وروابطنا ومشاعرنا وأحاسيسنا،كلها أشياء تصنعُ إنسان والأهم من ذلك رقاءُ مبادئنا،فأن تكونَ لديك مبادئ فاضلة أفضل منز تكون لديك مشاعرٌ،لأن الحياة لا تتطلب العاطفة بقدر ما تتطلب العقلْ،والعقل هو المبدأ الأول في العيشِ كإنسان..أينَ نحن من الإنسانية ؟ نحنُ الجيل الثلاثونَ ربما،نحن بقايا الإنسان الماضي الذي عاشَ دهراً حاملا حطامهِ على رأسه ويجوبُ بقَاع الأرض مبتسمًا ،قانعًا بشقاءهِ،نحنُ النصفُ التاني من الإنسانْ المجهول،الإنسانْ المخمورْ بكحولٌ رخيصة،نحنُ الأجسادِ الفانيةِ بينَ الجنةِ والجحيمْ،نحنُ الخيطُ النابضُ بينَ كل الأشياء الصالحة وبينَ التي لا تصلح لشيءْ،نحن الأكاذيب الحقيقية التي صارتْ كقوانينْ،بكل بساطة نحنُ قلبُ الذي يغتشي في جسد كلالأمواتِ،والمرعب في كل هذا أننا نوجد في ارضٍ لا تخصُّنا،نحن دخلاء عليها،الحقيقة غير كاذبة،فما بين التقليد والحداثة خيطٌ نابضٌ وهذا الخيط قدْ وَلدَ فيه المحطمون،المثعبون دوي النفوس المحترقة التي تدُسٌّ في أعماقها شمسَ الدهرِ الحارقة،هل في نظركمْ يستحقْ هذا الكائن الذي أنجبته الأوضاع السيئة أن يكونَ راقياً؟ أيمكن لذلك الفقير الذي عاشَ فقيراً أنْ يَقْنَعَ بالقليل من المالَ؟ فإنسانية هذه أيام ملْفِتةٌ للنظر،إنها كتلك الخردة التي لا تصلحُ لإيواء النفوس الضعيفة،الكل فيها يتقن دوره بكل حماسة،تراهمُ في كل مقبرة يودعون فيها موتاهم بالنحيبِ والبكاءِ الذي لا يسوى في ظهر الميتِ شيئاً. فإن البكاء على الميت مضيعة للوقتِ،بدلا من ذلك أدعوا له

بالمغفرة فحتى الأجر غالبًا ما نضيعه ببعض التراهاتِ.فليس دعاء بالعلن يسوى بل بالكتمانِ أرقى،إننا نريد أن نبلغ إنسانية بلتامِ الإنسان الراقي الذي يجتهدُ في نُكْرانِ ما تفوحُ منه من أفكارٍ ذنيئة،إنهم منشغلون في نَسبِ الزُّفاةِ إليهمْ،أليست قمة النكران أن نبدو متلعتمين في قول أن صَديقنا مات مبتسمًا فأقمنا له حفلة توديع العزوبية،ينبغي على إنسانية أن تخرجَ عما هو مألوفْ،أن نفرح لموتانا وأن نبكي لأننا لزلنا على قيد الحياة.في بعض أحيان يكون غير مألوف أفضل من كل المألوفاتِ الماضية،متى سنراهقُ بحماسةٍمجديةٍ تصنع النبلاء،بدل تلك المراهقة المتضررة التي تركض وراء سربٍ من الفيلةالضخمة،متى سننتفعُ بشبابنا المتهورينِ فندفعهم قدمًا نحو أعالي القمم حيثُ يولد الرقاءُ ويتسكع النبلاءُ.فمنذُ أن دخل كل فأر جحرهُ ،وتسامحتِ القطط مع الفئرانِ وساد السلامُ،فلم نعثر إلا على قطط تصاحب الفئران،والفئران تصاحب القطط،فإختل التوازن البيولوجي،وصار علينا أنْ نقتل بعض الفئرانِ بدعوتهم لحفلة بيعِ الجثة وجبنة مرصعة باالذةِ،واضعينُ في المقدمة شعارَ النبل لكل القططْ،كيْ ينهضَ منْ يُعيدَ المعركة الى أوجها،والسلالات لبعضها.أليس منْ يحق له الحياة ،منْ تراهُ نبيلاً في طموحهِ،فالإنسانية الشائخة التي تطبعتْ بالأمراضِ يستحيل على راقٍ أنْ يجعلهاَ فَتِيةً حتى وإنْ أطلقَ عليها كل خدعهِ،سيأتي ذلك اليوم الذي سنجلسُ فيه جميعاً أمام البحر الذي يلفض أنفاس أبناءنا،فنطالبه بأخذ ما تبقى من إنسانيتناَ،عزاءٌ جليل لهؤلاء الذين سيتخلون عن شيء ما مقابل أن تنعم الأسماكُ

بالشبعِ،لطيفٌ أن نفكر في الآخرينَ،ولكن اللطف الزائد يعتبر حماقةً،ستأكلُنا تلك الأسماكِ الصغيرة التي كنَّا ذات يومٍ نشوي كل أهلها ونفرحُ لسمنتهم الغريبة،ستبقى بقايانا في أسنانهم الصغيرة،سيأثرونَ لفصيلتهم السَّمكِيَة،لكن مايهمُ هو منْ سنلاقي في أعماقِ،سنرى آلاف الجثة التي لمْ يلفضها البحر قطْ،لقد خبأها ليوم العيد،لنكسوا أعماقنا بحسرةِ الذئب الذي فقذ عرينهُ،سنعيشُ مع ذنب غريبٍ،ذنْبَ الحياة التي ليستْ حياتنا،أهكذا يستطيع المرءُ أن يبَّجل إنسانيته؟

يعترينيي سخط مميتٌ،فحتى البكاءُ الذي قد يأتي لينفس عن حطامناَ،لمْ أرقى لهُ،ولمْ يأتي إليَّ إلا في شكلِ كركراتٍ ساخرةٍ،ماذا ظننتم انكم تنجبون؟ إنكم بالكاد تنجبون الموتى،والمرضى ودوي الإعاقاتِ الفكرية التي تنتصبُ فوق رأس قردة غبية،عجَبًا لا نزالُ أحياءَ حتى رأينا الإنسانَ يدفع بأخيه الى الهاوية ليلتقط له صورة حدفِهِ،فينشهر بقربه للجثة،أتظن نفسك إنساناً ؟ حثما لا فالذي لا يعطف على أخيه يستحيل أن يكون إنسانًا إنه مقصيٌّ من الإنسانية،فحتى الحيواناتِ تشعر بالعارِ حينما يموتُ واحدٌ أمام عينيها فتراهاَ تدمعُ وترتبك عيونها في صمت رهيبْ،أما الإنسان فيأخد صورة مع الضحية ويخبره بأن يلقي نفسه الى الهاوية ،لا أحد سيتأثر،هذه المصيبة القيمية التي نتعرضُ لها ليستْ سوى مرضٍ في كيانَ الكائن الخرفْ الذي يساوم كل شيء بالمال.ها أنذا أترحم على إنسانيتنا المزعومة،لنقف امام أنفسنا ونعترف بكل رقةٍ وصدق على هذا

الميتِ الذي لازال حياً،صُرْتُ أبلهًا منذ أن وقفتُ في المقبرة أعطي المواعظَ للموتى،فجاءني الحفارُ يضحكُ قائلا :

من قد يسمعك،فكل منْ هنا ميّتٌ،لقد إنذثرت كل مفاصلهم وأعضاءهم التي بها سيسمعونْ...

المهم أن تكون هنالكَ أرواح تسكن أتربتها،فالأحياء اليوم ليسوا غرباءاً عن موتاهمْ...

هل أحفر لك قبرًا لأسهل عليكَ التواصل مع الأثربة هههههه؟

حسنًا لك ما أردتَ...ولكن بالمقابل عليكَ أن تمشي معيِ وسطَ حشدي ،لأسمعك لغطَ البعير....

حسنًاا اوافق...

بعدما حفر لي قبراً وأخبرته أني لن أتوسد أرضي فليضع لي قماشاً ،فرقبتي حساسَةٌ لا تربطُ نصف الجسرَ بأخيهِ،فرحناَ الى حيثُ بلغنا منتصف الحشد وكل من يرانا يبتسمْ،بل تصيبهُ سخرية غريبة لربما كنّا متشردين أكثر من الازمِ،فقلتُ لهُ " ألقي موعظة وإنْ سمعك أحد منهم أو استجاب للغطكَ سأنام اليومَ في قبري الذي حفرته لي..فابتسم الحفار وقبّل العرضَ،فراحَ يتلوا مواعظهُ دون أن يلتفتَ إليه أحدْ،ففرحتُ لأني بالكاد أكره المقابرخصوصاً وأني وعدته بأن أبيت فيها،مرَّتْ نصف ساعة دون أن يلتفت أحدْ،فقال " سأحاول لآخر مرة "، وحينها صار يغني ويرقص بالمجنونْ،فإلتم الحشد عليه يرمقه بنظراتٍ مندهشةٍ فيما قد رأوهُ،فصار ينفثُ مواعظه كأغانٍ،وحينما إنتهى ساقني الى المقبرةِ،لقد

أجبرني على حفر قبرٍ لهُ ولأخوتهِ وأبناء عمومتهِ،حثما مساومة حفارٍ على الموتٍ كمنْ يطالبُ الجلاذ بإخفاء سوطهِ.فقال الحفار " إن لمْ يفهموكَ بأسلوبكَ،أفْهِمْهمْ بأسلوبهمْ"،" وإنْ لم يفهموا أسلوبهم إما خذْ الموسيقى مَعْبِّراً،او المقبرةَ مُدَبرّاً " ...لمْ يكنْ يرضيني النوم في مقبرةْ،ولكني بالكاد أحببتُ تجربة شيء غير معتادْ،شيء لا يستطيع أيًّا كانَ فعله،ها أنذا منغمسٌ في حفرتي،أتوسدُ أتربتي وأفترشها،فأمتطي صهوة النجوم اليانعة وسماءها الساحرة بِبَريق يشفي غليل الضجر في الروحِ،فجاءني الحفارُ يتمهل في سواده العظيمِ،مثيراً لقلقي فصاحَ من خلفي حتى كدتُ اتجرع روحي أمامي من الخوفِ،لقد أخافني هذا الأحمق،تمنيتُ أن أكون أحلم،وأني لم أخسر الرهانَ ولم أكنْ طُعْم هَذا الحفار اللعينْ،فقال " هل أعجبتك حفرتك أم أجعلها أضيق،فالنفوس المشتعلة مثلك تكرهُ الأشياء العريضة ولو كان بنطلوناً...

لا أتركها كما هيَ،إنها رائعة وتكون أفضل إن كان عمقها أكبر،كيْ لا أستمع لأنين من يوجد في السطحِ..

حسنا غدا سأفعل ما قلتَ،فقط لأنكَ وفيتَ بوعدكَ..تصبح على خير يا ميت..

تصبح على خير يا حفار القبور،يا رعضيض...

تركتهُ حتى ذهب لينام في كوخ بجانب المقبرة،ثم تسللتُ خارج قبري أتفرغ من حطامي وأخف حركتي كي لا يسمعني،وسرتُ بمهلٍ غريبْ،حتى بلغتُ خارج المقبرة،فحملتُ هندامي في يدي وأسرعتُ

بالركض حتى أضحيتُ بتعبي على شرفة منزلي،لقد نجحتُ في الهربِ في من ذلك الحفار،هذا اعظم ما فعلته على إطلاقٍ،دخلتُ بمهل الى منزلي ولكي لا ازعج أهلي ويزعجونني بأسئلتهم " اين كنتَ الان منتصف الليل؟ ،بسرعة مفرطة توجهت الى مرقضي في العلية،وكنتُ ارتدي معطفاً وقد اتسخ بالتربة،أتريد أن تبقى تيابك نظيفة وقد نِمْتَ في مقبرة تواً..فأدخلتُ يدي في جيبي لإفراغ التربة منهُ.وفجأة وجدتُ ورقة في جيبي وصرتُ بنهمي أفتش فيها،فبدأت اقرأها،وللعجبَ تقول :

" أعلمُ أنك ستَفِرُّ من بين مخالب الطبيعة،ولستُ أهتم ما قد يحصل،فذهابي ليس سذاجة وإنما درسٌ عليك التعلم منه...فالجميل أنك وفيتَ عهدكَ لي والغريبُ أنك فعلا نِمتَ في مقبرتي حيثُ أدُسُّ فيها موتايَ،لم أصدق ما رأيتهُ أنذاكْ غير أنني متيقن أنك صادقٌ في مواعظك كما في دعاويكِ،سأختصر عليك...لا تراهن على شيء أكبر منكَ ،ولا تصدق ما يقوله أغلب الحفارينْ فهم مجرد مهرجين حينما تملُّ المقابر يبتدعون نكتهم المضجرة ليزداد ضجر الأيام ويتخلصوا من ثقل ذماءهم المخمورة..كائن ساذج سأنتظركَ لتحضر جثتك إلّيَّ لنذفنها سويًا....ختامك مع الحفار الوسيم."

مرعبٌ أن تتلقى رسالة كهذه من عند حفار غبي،طاردَ حتى مَلَّ وتعبتْ رجْلاكَ من الجري لتجد في معطفك رسالة تهنئة،تهيؤك لشيء ضخمْ،لنهاية مأساوية ،لتقديم نفسك الى الجزار طواعية أيها الخروف الجميل،لقد تعلمتُ منه شيئانْ ..

نهاية كل البشر تحت أثربته،وبداية كل البشر فوقها. أين لي من الإنسانية ؟

إن الذي يجربْ النوم لمرة واحدة في قبرٍ بجوار آلاف الأموتِ،يفهم بوضوحٍ قيمة الحياةِ،وإنسانية الإنسان نفسهِ،فمعظم ما نخسره يفنى في تجددِه بأشياء أعظم منهُ،فلا ندرك قيمة ما لدينا إلا برؤية ما ينقصنا، فما ينقص هذا الإنسان اليومُ غير تيابٍ تظهره على سجيتهُ،تَخْلقُ منه الإنسان المكافح الذي يصاحب كل إنحطاط دون أنْ يمسه بضررٍ،إنه صاحب القبعة السوداء الذي يبيع كل سجائره دون أن يدخن ولا واحدة.هذا الإنسان الذي سيتكيف مع كل الأوضاع،كل المخاطر،إنه الفتى الذي تحتاجه الإنسانية لتستفيق من ثمالتها البائسة. كان في ساحة المدينة رجل مسن يقارب التمانينيات من عمره،يرمي فتاتاً من جيبه الصغير،لتلك الطيور المتشردة،او بأحرى ألفت وجود الطعامِ هنالكَ،فوضع كيسًا كبيراً وملأه بفتاتِ الخبز ووضع بعضاً منه أمام الكيس،وإبتعد قليلاً،فصارتِ الطيور من كل أنواع تأتيه في شكلٍ من الرقص الغريب،فظن الناس أنه يريد تربيتها في منزله،ولكنه منذ أن أمسك بها،أخذها الى منزله وصار يقص أجنَحة واحدة بعد الأخرى،فقد ظن أنهم سيعيشون بعدما ستقطع صلتهم بالسماء ولكنه أخطأ حينما رآى كل الطيور ميتة في الصباح التالي..هذا العداء الذي لم يكن يرضيه كان هوسًا غريبًا فهو رُبَّانُ طائرةٍ متقاعدْ، إنتهتْ رحلته مع التحليق حينما أسقط صديقه من أعلى الطائرة في نوبة من الغضب والشجار بينهما، فضجره صار حسداً وكل من يراه

يطير يحتقره ويلعنه،هذا الصياد الحقير ليس فقط قتل عشرون حمامة وبعض من فراخ الطيور الجميلة،إنه أجرم في حق كل إنسانية بأنانيته المزعومة وهوسه الغريبِ في قتل كل منْ يحاول الطيرانَ،لقد أفضى الى نزوع جزء هاَمٍ من الطبيعة،فلا يمكننا البتة أن نعيش على اصوات البشر الحمقى فقطْ،فتلك الزقزقاَت والتغريد هي ما يجعل الحياةَ أجمل،سيصير يغرد مكانها ولنْ يكْفِيهِمجرد نهيقٍ بائسْ،فهؤلاء الشواذ الإنسانية التي عليها أن تفقذهم يومًا لتطفوا على سطحِ،لكي تنجو بجلدها إن أرادتِ النجاة حثماً..لستُ أريد ان أسيقظ على صوتٍ محركِ السياراتِ صاحبةُ الصوتِ المزعج،أنا منْ أَلِفجواً مسحوراً بالطيور والأشجار،أنا من يعيش وسط غابة لا يقربهُ سوى من كانَ للحيوان صديقًا،لقد انتصب الهدوء على جثتي فنالني ونِلْتُهُ،فالضجيج الذي يأتي بعدالهدوء أشبه بالمعركة التي تتراشق فيها السيوفُ،فلا نسمع إلا صيتها المرعبَ،وصوت أولائك الذين خَطَّتْ السيُوف أجسادهم،فلا نرى سوى الساقطين أما الواقفينَ فلا أحدْ،عليكَ أنْ تستفيق من الأحلامِ الواهية،فأحَقِّيَتُك بالنجاةِ مِلْكٌ لكَ،فلا تَقُلْ أن عند الله حقٌّ وأنتَ منْ تركتَ حقكَ يُنتزعُ،ولا تخبرني أن الإنسانية وُلدَتْ هكذاَ فلكل عطبٍ علاجْ،وإن كانَ علينا أن نقطع الجذور فسنفعلْ المهم أن يصبح الإنسان راقياً ولو قليلاً،فالحياة التي تساقُ الى الحضيرة كأمانْ، لا تجعل من النعجة صديقَة كل الذئابْ.

يأتي وقت نشعر فيه أننا في أشقى حالتنا،نطل من نوافذنا نبحث عمنْ نرمي إليه هذا الشقاءِ،والمصيبة ألا نجذ أحدا،فغالبا ما نلقى من يتجسس

علينا فلا داعي للبحثِ ،إنهم جيراننا الأوفياء دوي الأذان المرهفة،وللسان السليطْ،مدننا كل أطرافنا غلم نجذ غير من يتركها تموت في نجنته،هاته ليست إنسانية،الإنسانية روحٌ مرهفة تصبو الى الفضيلة،الإنسانية كائن نسينا جميعاً ملامحهُ،معتوه هذا الإنسانْ فرأسه الذي يزنُ كفتين لم يعد قادراً سوى على البقاء على قيد الحياة،مادمتُ كل الأشياء موجودة فلا داعي لإعمال العقلْ،هيا لنضعه جانبًا ..عندما كنتُ صبيًا كان حيُّنا أنذاك يلفظ أنفاسه الأخيرة،لمْ يبقى فيه غيرنا وبعض منْ يَحِنُّ لسلالته المحضورةِ،لقد هاجرَ كل سكانِ الحيْ الى الحيْ المجاور لربما يظنون أنهم بهذا اللعب سيجبرون على إنجابِ الصعلوك النبيل،الفتى الأخلاقي المنشود،هذا العطب الجيني لنْ يكونَ علاجًا لكل الأعطاب،لكنه سيكون مخلصها الأزلي،دائما ما نخطئ في لوم البيئة التي نولد فيها،بل العكس فمنْ يلامَ هو إنسانْ،فهذا المخلوق الغبي المسلوخ من الإنسانية لمْ يجعل في يديه لا سلاحاً يدافع به عن إنسانيته ولا لباسًا يُظهرها،ولكنه سرعان ما لبسِ أساور وصار يرقص في كل حفلة يراها لقد صرتُ الوحيد الذي يغار على إنسانية الآخرين من الضياع..

ففي زمن تغاشت فيه الأكاذيبِ،وصار للإنسان موطنٌ خارجَ نفسه يُلقي فيه ماطيبَ له من المكائدْ،صرنا نخاف أن نقول الحقيقة فلا نجذ من انفسنا غير الجثة تتوسد مقبرتها،أليس مرعبا أن يخاف إنسان من حقيقته؟أهو فعلا يستحق أن يكونَ كما هوالآن! لستُ أحب إلقاء المواعظ لأني لستُ بكاهنَ،فأنا من قد تراهُ واقفا بقرب الحافلات ينتظر نفسه دون

أن يحرك فيك ولو شعورا واحَداً،أنا الذي أسير وسط الحشد بشموخي مفتخراً بإنسانيتي المأسورة،إني أخاف أنْ يُكسَر شموخها بداخلي كوخزةإبرة لزال جرحها حديثا. إني أرى الجثة تنكب خارجَ نفسها تتقيأ مرارةَ أتعابها،رأيتُ شيخا يتوق لصباهُ،وصبيٌّ يتوق لعدمه،رأيت السالم يرضى بموتاهُ،وميتٌ يناجي صحياهُ،رأيتُ الأصحاء وبهم مرضى..رايت الكثير،اليتيم الذي صار للُيتمِ داعية،وللأسير في سجنه موعظة،كُلنَا أسرى هذا المتوحش البَغيض،هذا الإنسان العصري صاحب العقل المتوحشْ،فلا تظن أن التَمَيُّزَ يُبْقيكَ في مأمنٍ منْهُ،فالشعورَ بالخذلانِ،وحنينك لتميز إحدى أبشع صفاتْ هذا الكائنْ،فلا تورثَ المرض في منابتكَ،واستأصلُ كل الجذور المريضة،فليسَ ما يضر إنسانُ سوى ما يرثه من أجداده منْ مرضْ...صُنْ إنسانيتك بعيداً عن الحشدِ،فغالباً ما يفسدُ الإنسان بالإنسان. .

-٤-

زَوْرَقٌ مَزْرُوفْ

الى حيثُ تَقود كل النهاياتِ.....

في الغالبِ لا نذكر ضياعنا إلا في شكل مألوف،كأنْ تضيع في غابة،أو حيْ...هذا ضياع من نوع آخر،ضياعٌ في الذاتِ،ضياع في كل النفوس،مادامت كل النفوس تملك جزءاً منَّا،فالحبُّ يجعلنا أسرى منْ نُحِبْ،والحياة ترغمنا على أن نكون من أسراها..

فأحبيني ولو مرةً،أفسدي عزلتي وأنْتِي فيَ ضجيجاً لا ينتهي لا أمانعٍ،أتيني بكل الخيباتِ،بكل المآسي البائسة،فلا يفْرحني إلا ما يجعلني أقاومُ نفسيِ،دَعيني أرى نفسي كما أريد،فرؤية النفس كما هي يعد إنتصاراً.وَلِمَ لا يكون الحبُّ هو الدافعُ.إنني الآن على لسان كل أحد ،يَنعثونني بالمتشائمِ،بصاحبِ النظرة الحديدية المثقلة بالكهولة،أليس مرغوبًا أنْ نلقى الوقّارَ ولو فقدنا القليل من صفاتنا الحسنة،هذه الخدعة التي فيها يبدو الإنسان عكس ما هوعليه، فقطْ ليتخد من الوقارِ بيتًا،و مجلسًا يريحهُ من لغَط كل الذئاب المتوحشة..إني لأتخلى عن كل شيء مادمتُ سأحتفظ براحتي النفسية بعيداً عن كل ضجيج تُصدره هياكِلٌ

قانطة من إنسانية،فعادة ما كنتُ أصمتُ فقط لكيْ لا أضطر لتبرير،فالتبرير حربٌ لا تنتهي خصوصا وإن كان العدو غبياً،لاقاني شيخٌ في الطريق مهدود الحيل يتعكز على عصاه المعوجة يقول " لا يُوجَد شيء بعد الكهولة سوى النهاية،فأحسن إختيار البداية..ظل يقولها دون أن يَرفَع رأسه من الأرضِ،كم من الثعب قد يقاسي المرء لينتهي به المطافْ كهذا العجوز مقوس الظهر لم يترك له الدهر خياراً غير غرسِ رأسه في الحفر كالنَّعامْ،إني متخوف من هذا المصير المُرعبْ،لا أريد أن ينتهي بي المطافُ أتوسدَ عصى لطالما تجاهلتها،أين سيذهب شبابي ليتركني مع كهولتي نتحاربُ فيما بيننا،أليس هنالك مكانٌ نختبئ فيه حتى يمر هذا السِّنُّ الغريبْ،لامفر من الكهولة،كلنَا الى العدمْ،وما الخوفُ إلا نبرة من فمِ وحْشٍ إنتظر كثيرا فريستهُ،فحينما رآها صار يزمجر ويصرخُ،فلمْ يحركْ فيها شيئاً،حينما أوضحَ الرؤية وجد فريسته نملةً تجر حبة قمحٍ خائرة القوامِ،فجاءه النذمُ في شكل غفوة مثعبةٍ،هذا الخوف من المصير هو نفسه المصير ولكنه محجبٌ بمثالية زائدة فالأشياء التي نتمناها تكون أمامنا طوال الوقتِ،إلا أننا نضع نظارات سوداء تجعلنا لا نراها بل نرى جُزءها السيء فقطْ.إننا في حاجة لمن يَستمر في صفعنا كلما رآى النذم يتسلل إلينا،فكل ما في الأمر أنني تورطتُ في الحبْ،في الندم أكثر من اللازمْ،فلا تتورطْ في الحبْ فأعداءه كثيرون ومن الغباء أن تجعل نفسك عدو الحبْ،المجرم والضحية في نفس الآنْ.غالبا ما ييأس المرء فتخور نفسيته مادام وجد نفسه كارها للحبِّ ومحتاجاً لهُ..قيل أن

للحبِّ سحرًا لا يراه سوى الأعمى،ولا يسمعه إلا أصَمْ،لربما هم على حقْ،فالأبكمْ الذي يدس في أعماقه مشاعراً كتلكْ يكونُ قلبه نقيا كالثلجْ،هنيئا لنا بقلبٍ نذر كل ثلوجهِ لنا،وسحقا للسكير الذي أضاعه في نبيذه ،جاءني السواد المُعثم يرجو فؤادي،فقلبٌ كقلبي يهواهُ كلُّ بياضٌ وكل سوادِ،جاءني طالبًا عفو الرمادِ،وكلي ثغور تسوى البحورْ،إبتَسَمَتْ..وللبَسْمة طُعْمٌ يُسْقطُ كلّ َمغرورْ،ناذتي بصوتها الجشاءِ،بصرختها المزعجة تتلو في أعماقي مآسي البارحةِ،فإلتأم الجُرحُ وصار له في الروح رفيقًا،فالحبُّ انْ لمْ يَأتي كعدو فقد يأتيك كصديقْ...الإنسان أبدا لايَحتاجُ لمنْ يأتيه بالقمر ليضيء له حياتهُ،فبالكاد استطاع نيلَ النجومِ،فعادة ما يكون القمر صوبَ كلِّ العيونْ،فيا ترى الى أين ستذهب كل تلك النجومْ ...زورقٌ مزروفْ،هذا أنا شيء دخل الى أعماَق البحر فضّاعْ،إنَّ أولى معاني الضياع هي الحبْ،حينما يُبْتلى المرءُ أكثر من اللازم لا يصابَ بالجنون ولكنْ يضيعُ أولا في متاهاتِ النفسِ فحينما يعثر عليها يجذها مشوهة فيرتعبْ بل يأتيه الجنون في صعقة كهربائية تودي بالمسكينْ،إن أرحم ما في الحبِّ نظرتهُ الأولى وأقساه نظرته الأخيرة،فمن يتودد لوحش النسيان لُيلْقى غير القسوة،فلكي تنسى مشاقك عليك بتذكرها،فإن خِفْتَ تذكر ماقد يُصيبَك إن ظللتَ تفكربها،فالحل في مواجهة أشياء لا في الهرُوب منها كالصرصورِ،لربما كان بإمكاني تقبل مصيري وأن أقع كأيِّ نذل بغيضْ في أي شباك أراها منصوبة دون أن أفتح أدناي لسمع دندنة حشدِنا

الرائـــع..ولكني فضـــلتُ أن أرتمـــي فـــي أحضـــانِ الوحـــدة،وطبعًا لـــمْ يكـــن بالسـهل أن ألِـجهاَ مخمـوراً بمآسـيَّ وصـدري المملـوءِ ببقّايـايْ،ظللتُ أنـزف لوحـدي فـي تلـك الغرفـة المقرفـة،حتى كـدتُ اتجـرع نفسـي مـن شـدة مُقوتهَا،قـالوا عنـي متوحشٌ،وغالبًـا ماكـانوا يسـقطون تحـت شـفقة وحشـي المفضـل،أليس غريبًـا أن يرمـي النـاسُ مـا طيـبَ فـي خـواطرهم فقـط ْليبـدعوا فـي إصـابتكَ؟أليسَ رهيبًـا هـذا الشـعور القبـيح الـذي يجعـل مـن المـرءِ أسـيرَ خيبتـه وإحباطـهِ،إنهم لايسـتطيعونَ الصـعود لمكـان تسـلقي فِيلقـوُنَ لـي فتـاتَ دجـاجهم المطـاطي المبلـل أيظنـون أنـي قـد أعـود ببَـطنٍ مكـتظ بِـالهوى فقـطْ لأنـي شـممتُ رائحـةَ عفـنهم الغريـبْ،إنهم فعـلا أنـاس أشـرارْ هـؤلاء الـذين يضـحكون فـي وجوهنـا فـي النهار،فنجـدهم فـي الليـل يُثْـلونُ قصصـنا فـي شـكل نُـكثٍ،ليخرجو االـى العـالم كأفضـل الصـيادينَ مهـارة لأوغـاد دوي العقـول المتيقظـة،لكن فـي الحقيقـة مـاهم الإسـربٌ مـن المحبطـين حينمـا لايجـدون لأنفسـهم مـا يجعلهـم متميزينْ،يبحثـون عـن شـيء مـافي شخوصنـا نحـن المنحـذرين مـن الجبلِ،ليسـكتوا العطَـش شخوصـهم البالية،في ليلـة ككـل الليـالي التـي فيهـا لاينـامُ المـرءِ إلا حينمـا ييأسْ،لربمـا كانـت تلـك الليـالي تلفهـا الوحـدة والصـمت الرهيـبْ،فليسَ لقلـبٍ متحجـرٍ كقلبـيِ أن يأخـد بيـده العثمـة،ولا أن يستسـلمَ لهـدوءهاَ،فنحن الـذين تعلمنـا أن كلَّمـا يصيـب المـرءُ يجعلـه قويـا،ومن يـسأمُ ضـعفه نـالَ حُسنـهُ (مصـيره)فلا تـركضْ وراء اللاجـدوى وإنتعـلْ حـذاء الفضـيلة ،فجيـلُ هـذا الوقـت ينتعـلُ أفخـم الأحذيـة وأروع التـيابِ،وفي

عقـلـه يسـكنُ أحقـر الجـرذاًن،فلا تفـكر فيمـا هـو كـائن ،بـل مـا سـيكونُ فيمـا بعـدْ ،فمســتقبل إنســانِ مــرتبطٌ بماضــيهِ،فإختر الشـخص المناسبْ،فالمآســي تأتي بتجاهل هذا الخطأ..

لا ترى في إنسانٍ تحبه،ما قد تراهُ يكره،

فالثقة تنبني على رُمشِ شعورٍ،والحبُّ بعدهُ سيكرهْ،

فاغتني بالودّ،لأن كل وحشٍ يَصيرٌ ملاكـا حينما يجد بدل الـيُتـمِ حُبًا..

واختصـر كـل المسـافاتْ فـي كلمـة – أحبكْ - .فالحـبَّ جـرمٌ مقبـولٌ وإنْ كـانَ غالبهُ مأسورْ.

فـي أعــماقِ الغيـابِ كنـتُ أرتكـنُ،لا أحـد سَـألْ،ولا غريبًـا إتصـلْ،كأني بـين البحــورِ قُبْطانًــا ســاق نفســهُ الــى الضــياعُ دون أن يعلمْ،لــم ألـــقى ســوى الزوابـعِ ترمينــي واحـدة لأخـرى،فلمْ يصـبني الـدوارٌ ولا القلـق هَزنِــي،بقدر مـا جاءنــي نمسٌ فـي البحـار يرتمـي فقـال " لـم أرى قـط قبطانًــا يتـرك المقـود للرياحِ،إمـا أن لـك روحـا مغـامرةً تقـنطُ الهـدوء أمْ أنـك أغبـى قبطـانٍ يـدخل البحر دون لباسْ ؟

إن الحيـاة لتحلـو بالمخاطــر،فما اقـبح الضـجرَ حيـثُ يَـسودُ،فحيثُ يـرتكنُ لا أرتكنْ،فأنـا الـزورق الضـائع الـذي نهض لتـوه يبحـث عـن أرواحٍ ينقـذها مـن الغرقْ...

مـاذا لـو كنـتَ أنـت بحاجـة لتلـك النجـذة التـي تحـاول تقـديمها؟ لربمـا أنـت الــزورق المـزروف المملـوء بـالثغور الـذي ينتظـر مـن الأمـواج رميـه الــى البرّ...

المهم أن تظل بعض أخشابي طافية ليتنقذ من في ودّه النجاةْ،فحتى وإن صرتُ فتاتًا فلن ترحمني الأسماكُ....

دعني وشأني ،سأرحلُ،فالكلام مع قبطان أحمقٍ مثلك،كمن يفرغُ الهواء في البحر..

تمت إنسان في يخبرني أنّ علي العودة،وهنالك إنسان آخريجرني نحو المغاذرة،وكلاهما منّي،فهل أنسى عوائد نيتي الطائشة لأعود،أم أخفِي أثار جروحي الماضية فأتقدمْ،الأمرصعب خصوصا إن كان جزء منكَ يرفض المغادرة والآخر يطالبك بالبقاء،إنها ساعاتٌ من الضياعِ كأنها أعوامٌ قد مضتْ على جثتي فمن ياترى وجدها،فاليوقظها من غفوتها إني أكره الإنتظار فلانتظارُ كَمنْ يُجلدُ وهو نائمٌ،فإرحموا هؤلاء المنتظرين فأسوء ما في انتظار الشعورُ بالضَياعِ .كيف لإنسانٍ أن يعيش دون هذف،دون أن يتحركَ ولو قليلاً؟

إن المضجر في الحياة ليس أنها تتكرر ولا أنها شاقة،لكنها أشبه بالمهرج الأحمق الذي يدفعنا بمهارته لكي نتمسك بالعرضِ،شيئا فشيئًا يضجر الحشد،لكنهم مجبرون على البقاء ينظرون لذلك الإنسان كي لا يفقدَ ما تبقى من إنسانيته وراء الستارْ،دائما حاول أن تُلاعب نفسكْ،إجعلها تصنع البهجة وإن كانت مزيفة لا يهمْ،المهم أن تضحك .فقد كان لدي صديقٌ كل مرة أراه تصيبني نزلة من الضحك،ليس لشكله الغريب بل لشيء في شخصيته يدفعني الى الضحك دون أن أتحمل مشاق إحتجازها،فما فائدة الصديق إن لم يخرجك الى العبثِ،الى المخاطر،أن يجعلكَ أب كل

المشاكلِ،إن الصديق اليومْ هو البحار الذي يأخذك في جولة مثيرة في بحر لا نهاية لهُ،ويعودُ بدونكْ،إنه قد يُلقي بكَ الى الأسماكِ فقط لأن نفسه الخبيثة لم تتحمل الصمودَ كثيراً أمامَ حشدهِ النفسي المليئ بالحسدْ،إن أغلب الطيور لا تقع إلا حينما تثق أن هنالك أصدقاء بجانبها فإن لمْ تُصابَ هيِ فحثما هم سيصابونْ،لا تحاول جر نفسك إلى التهلكة بإسم الصداقة فأغلب الموتى اليومُ كانوا ضحاياها البارحة.فالوضيع في العلاقاتِ هي تلك السموم التي نتجرعها دون أن نعلم ما تكونْ،فالزمن الذي فيه الإخوة يقتلون بعضهم،لنْ يكون فيه إنسانٌ أفضلْ،ولا صديق جيدْ،حاول دائما الصمود في أي حربْ،فالأقرباء عادة أول من يسقطكَ.

زورق مزروف،هذا أنا إنه لقبٌ غريبٍ لكنه مناسبٌ لي،إننا معاً نتنازل لنرى من يناسب الآخر أكثر،لا تكترت للوضع كلنا هكذا،جيلٌ بأكمله،سربٍ يمشي الى الجحيم بإرادته دون أن يلتفتْ ليرى ما حصل لمن بعدهِ،فأكثر ما يؤلمْ أن تجد نفسك مرغماً على البقاء في مكانٍ يطردكَ،إنه كالمنزل الذي يرفضُ أبناءه ولكن بشيء من القساوة يرمي المعاني،أتعلمون أننا لسنا الناجين من هذا العبثِ،من هذا الضياعْ،إننا فقطْ نؤخر الموعد الذي فيه سنجلد بالتأكيد..فإن كنا سنعيش ضِياعًا فيجدر بالضياعِ أن يكونَ مفخرةً،طُعْمًا لنفوسنا المغامرة،فكلما ضاع إنسان في شيء إلا وزاد معرفة به.

كل الليالي الضائعة فيَ،وكل كائن يعيش نفسه بذاخلي،وكل ما لم أعرفه بعدْ، كل الأشياء التي تجعلني ابدو أحمقًا لا يبالي.كلها لي،وضياعي

فـيهاَ لا يحتمل،فقد تعيشُ مع زوجتك الثرثارة والشرسة سنينًا لكنْ كل ما تحبه فيها هو هذه الأشياء المرعبة التي لا توجد في كل النساء.كنتِ فتاةً طائشة ،تثير رغبتي في صفعها طوال الوقتِ،كنتِ كالبحر الذي أضاعني وها أنذا أبحث عن النجاة في زورقي،كم من إحتمالات ينبغي أن تسود فأنجو ! وكم من الأمواج علي أن أصفع لأرتكن مع الرمل على ضفتي،سرعان ما يُقتلُ الحيلُ لنتوسد أثربتنا الوفية،ماذا لو إنهار كل ما يحملنا،هل كنا لنحتمل هذا الفراق المزعج ؟

يعترينا سخط مميتٌ بشيء من التخوف المزعج الذي يجعلنا نرتكن في قلب غابةٍ من الوحوش المتشردة حينما يتسلل الحذر من الأرجاء الى دواخلنا فيبيتُ زمناً طويلاً ينْبش في جُدارننا الحية، فهذا المتسلل المضحك الذي يأتي من الخّارج يجعلنا مُربَكين ،غالبًا ما نختنق لقساوة يده الصلبة التي تلف روحنا،فليس عليك أنْ ترتعب وإنْ جلست مع الذئاب على نفس الطاولة،فما يخيف الذئاب جرأة الخراف وليسَ صراخها.

حالما يستطيع إنسان توجيه زورقه نحو الوجهة التي يريد، هناك سيعثر على نفسه،كيئُونته المخلصة،شيء كهذا ...المهم أنه سيكون قد عثر على شيء ما لم يكن يحلم برؤيته وهو مستيقظ... حينما يلتَّفُ الحظْ على رقبة صاحِبه يصبح خانقًا ،بل يصبح الاسوء غاية في اللذة،فالحياة هي بحر عميق لآلاف الزوارقِ،فمنها من يَغرقُ منذ البداية ومنها من يتلاشى خشبه في النهاية.فليس الزورق إلا نزيل الذي ينتهي به المطافْ على شاطئ يجهل كَيفَ يَسحبُ أعداءه.

المأسور
عودة الى الذاكرة
يوسف اسخيرة
المأسور
يوسف أسخيرة
هذا الكتاب
إني أسيرٌ،سجينٌ نفسي وأفكاري،مقيدٌ
بهذه الحبال التي لا تفتأ تصيبني
بالأرق،متأكد بأني عليَّ الإنفجار
اليوم،كي لا أطيح بأحدٍ غداً،أي انفجار
هذا الذي ستحدثُه مجرد شرارةٍ من
فكريٍ المشتعل،اليوم سأخبرك بكل ما
كنتُ استتر عنه ليس خوفاً ولا رهبانا ،بل
تحفظاً وتعقلا فحينما تعيشُ وسط
الضباع عليك أن تأكل من طعامهم حتى
وإن كنت سنجاباً،وإنّ كنت من الخراف
فَكُلْ ما يحلو لك،متعب أن يعيش إنسان
أسير نفسه،متكتماً على قنبلة حينما
ستنفجر لن ينفع معها الندم...